الشمال الإفريقي فى عهد الوندال*
فى مصنف المؤرخ المعاصر فيكتور فيتنسس
(٤٢٩ – ٤٨٤م)

أ.د. فايز نجيب إسكندر
كلية الآداب – جامعة بنها-مصر

فيكتور فيتنسس Victor Vitensis وأهمية مصدره:

ظلم الوندال[1] لأنهم لم ينجبوا مؤرخاً من بنى جنسهم كحال الكثير من العناصر الجرمانية الأخرى[2] – يسطر أحداث تاريخهم دون التحامل عليهم كما فعل الأسقف فيكتور فيتنسس Victor Vitensis(دوفيتا DE VITA فى المراجع الأجنبية)، وبوسيديوس Possidius أسقف جالمة (قالمة Calama)، [3] وفراندوس أسقف قرطاج Ferrandus de Carthage وبروكوبيوس (٥٠٠–٥٦٥م) Procopius المؤرخ البيزنطي الذي ولد فى مدينة قيسارية الفلسطينية، وكافة المصادر اللاتينية الأخرى التي أشارت إليهم من قريب أو بعيد. وكان نتيجة ذلك، عدم تمكن الباحثين من إنصافهم بعقد الدراسة المقارنة بين مصادر متنوعة وليس الاعتماد فقط على مصادر ذات وجهات نظر معادية ومضادة. وفيكتور فيتنسس– أو دو فيتا– أسقف كاثوليكي يؤرخ للوندال

---

* تشرفت بالتدريس فى جامعتى باتنة وقسنطينة من فبراير ١٩٨٣ حتى أغسطس ١٩٨٥. وهذا البحث هو الثمرة الثالثة من نتاج إعارتى. أما الثمرة الثانية المتصلة بهذا العنوان فكانت "الحياة الاقتصادية فى الشمال الإفريقي فى عهد الوندال – القاهرة ١٩٨٨م". فى حين أن بحثى الأول نشر فى "مجاة سيرتا" Cirta المجلة العلمية لجامعة قسنطينة بالجزائر، العدد الثامن ١٩٨٣م، وعنوانه "الفتوحات الإسلامية لأرمينية" دراسة تأريخية لحملة المسلمين الأولى ١٩هـ/ ٦٤٠م. واختصاراً لصفحات البحث، إكتفينا بذكر المصادر والمراجع كاملة في الحواشي حين ذكرها لأول مرة.

[1] أكد جوردانوس(ت٥٥٤م) Jordanes الذي كتب في منتصف القرن السادس الميلادى تاريخاً للقوط بعنوان De Rebus Getica de Origine Actibusque Getarum أن الوندال موطنهم الأصلى إسكندنافيا. أنظر: Jordanes, *De Rebus Getica dans M.G.H.a.a.*, V, 1, p. 60; xvll, 94-95, p. 82.

[2] من هؤلاء مؤرخ الفرنجة جريجوار دو تور(ت٥٩٢م)Gregoire de Tours (أنظر: Historin Francorum, ed. Krusch, dans *M.G.H.S.R.M.I*, Hanovre, 1885.) وبولس الشماس(ت٧٩٩م) Paul Diacre مؤرخ اللمبارديين (أنظر *De Gestis Longobardicarum*, Dans Scriptores Rerum Longobardicarum M.G.H.I) وجوردانوس مؤرخ القوط سالف الذكر فى حاشية ١.

[3] لاحظت أثناء تدريسى فى جامعتى باتنة وقسنطينة، أن الجزائريين ينطقون اسم تلك الولاية "جالمة" بينما يكتبونها " قالمة" وتقع"قالمة" على حدود إفريقيا القنصلية ونوميديا. (أنظر: Schmidt, L., *Histore des Vandales*, Paris, 1953, p. 79) ومما يذكر أن بوسيديوس كان قد لجأ إلى هيبو Hippo أثناء حصارها، إلا أنه عاد ثانية إلى أسقفيته قالمة. أنظر: Prosper, *Chronica*, 1327, dans *M.G.H.a.a.*, IX, p. 475.

الأريوسيين[٤] الذين احتلوا وطنه، وأكرهوا بعض الكاثوليك على اعتناق المذهب الأريوسي، وفتكوا بالغالبية الساحقة منهم، فأذاقوهم كافة ألوان العذاب[٥]. ومن الطبيعي حين يؤرخ لجلاده سيتحامل عليه كثيراً، و سيتغاضى عن ذكر محاسنه. لذا، رغم كون ڤيكتور معاصراً للأحداث، ولا غنى عنه

---

[4] إثر اعتراف الامبراطورقسطنطين الكبير سنة ٣١٣م بالمسيحية كإحدى ديانات الامبراطورية الرومانية، اندلعت نار الخلافات العقائدية بين المسيحيين أنفسهم، إذ أنكر أريوس Arius ألوهية المسيح. وكان مؤسس الهرطقة الأريوسية هذا قد عين سنة ٣١٨م على رأس كنيسة بوليكاليس، وهي كنيسة صغيرة في أحد أحياء الاسكندرية. فتقدم كثيرون بالشكوى إلى البابا الكسندروس، فأصدر حكما بتجريده من رتبته الكهنوتية والحرمان الكنسي لأتباعه. وبوفاة البابا الكسندروس في أبريل سنة ٣١٨ م، أجمع الأريوسيون على مقاومة خلفه البابا أثناسيوس(٣٢٨-٣٧٣م) الذي اشتهر بقوة الجدل وصدق العقيدة وشدة الخلاص. وفي غضون اندلاع النزاع بين أريوس وأثناسيوس، اتخذ قسطنطين قراراً بنفي أثناسيوس إلى تريف Tréve في جنوب بلاد الغال(فرنسا) بعد تصديقه على قرارات مجمع صور، فوصل إليها في الخامس من فبراير سنة ٣٣٥ م. بينما تقرر العفو عن أريوس والسماح له بالعودة إلى الاسكندرية، لكنه توفي سنة ٣٣٦م وكان قد تجاوز الثمانين من عمره. للتفاصيل أنظر: Boniface, F., *Histoire des Dogmes Chretiennes*, II, pp. 6-71; Hanark, A., *History of Dogma*, VI, pp. 15-50; *Précis de l' Histoire*, Paris, 1893, pp.176-154; Haag. M. E, *Histoire des Dogmes chrétiens*, Paris, pp. 148-152.

أنظر أيضا: رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة – القاهرة ١٩٧٥ – جـ١، ص١٦٧-٢٠٦؛ عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية – ترجمة إسحق عبيد، القاهرة ٢٠٠٥ م ، ٥٥-٩٥؛ الترجمة الثانية لنفس المرجع أعدها ميخائيل مكس إسكندر، القاهرة ٢٠٠٥م، ص٣٣-٣٦؛ إسحق إبراهيم فارس: مدخل إلى العهد السيحى الأول- القاهرة ١٩٨٧م، ص١٤٨-١٥٣ والملاحظ أن الترجمة الأولى أدق وأفضل بكثير من الترجمة الثانية.

[5] هناك عوامل عديدة ومتعددة سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية حثت جيزريك على احتلال الشمال الإفريقي منها: ما كانت تحظى به إفريقيا من ثراء، إذ انها كانت تزود روما بالقمح. فبالهجوم عليها، وضع الملك الوندالى في اعتباراته إيقاف تزويد وتموين عاصمة روما الأزلية وتهديد الامبراطورية الرومانية الغربية بالسقوط. وقد أكد ذلك الثراء المؤرخ الإفريقي المعاصر ڤيتنسس حين قال "إن الوندال لحظة غزوهم لإفريقية، وجدوا أنها ولاية يسودها السلام والهدوء، وتنعم كل أراضيها " بثروات زراعية مزدهرة تبهج ناظريها " إذ جاء في مصدره "...Pacatam Quieam Que Provinciam, Speciosi Taem Totius Terrae Florentis Quaque Versum...". انظر: *Vita*, Éd. Petschenig, p. 3; *Vita*, Éd. M.G.H.a.i., p. 1; *Vita*, éd.micgne, p. 132." كذلك وضع جيزريك في حساباته إمكانية تعرضها لهجمات شعوب جرمانية أخرى من حلفاء روما أمثال القوط الغربيين الذين سيأتون إليها من الشمال الإفريقي، فرغب في الانقضاض عليها قبلهم. كما أن كونت الشمال الإفريقي بونيفاس Boniface كان قد طلب نجدة جيزريك في مواجهة جيوش الامبراطورية الرومانية، خاصة وأنه بونيفاس كان قد سبق له أن فقد سيادته على قرطاج وهيبو. ولضمان الدعم الوندالى له في صراعه المرتقب تزوج من أريوسية تجرى في عروقها الدماء الملكية الوندالية. (للتفاصيل انظر:*Schmidt*, pp.68-76). ولا يفوتنا ذكر حب جيزريك لجمع الغنائم والثروات، وحبه للمغامرة والبحث عن غزوات جديدة. كما كان على علم بأحوال إفريقية السياسية حيث أن السيادة الرومانية آنذاك لم تكن إلا سيادة إسمية على بعض أقاليمها. إضافة إلى ما تقدم، كان جيزريك على علم بانتفاضات قبائل البربر Maures وضعف نظم الدفاع الرومانية. (للتفاصيل أنظر :*Schmidt*, pp. 39-41) في حين يرى كاسيودور أن سبب انتقال الوندالى إلى الشمال الإفريقي يعود في الأساس إلى الضغط العسكري الذي مارسه القوط الغربيون لطردهم من اسبانيا، إذ جاء مصدره: Gens Vandrloroum a Gothicis Exclusa Ad Africam Transit". أنظر: Cassiodore, *Chronique*, dans M.G.H.a.a, X1, p. 107.

على الإطلاق للباحث فى تاريخ الوندال حتى عهد هونوريك – أى حتى أواخر عام ٤٨٤م–، إلا أنه يجب التعامل مع مصنفه بحرص بالغ، لإنتقاء ما هو صحيح من أحداث، واستبعاد ما لا يتفق من العقل والمنطق.

والملاحظ أن مصنف المؤرخ ڤيكتور ڤيتنسس Victor Vitensis وعنوانه "تاريخ الاضطهادات التي تحققت بولاية إفريقيا فى عهد ملكى الوندال جيزريك[٦] وهو نوريك[٧]" Historia Persecutionis Africanae Provinciae Temporibus Geiserici et Hunerici Rengum Vandalorum. لم يحظ بقدر كاف من الأهتمام الذي يستحقه، رغم أهميته البالغة، اذ مرّ عليه مؤرخو الأدب اللاتينى المسيحى مرور الكرام، متجاهلين عن طيب خاطر أن مادته التاريخيه تتسم بالوضوح والحيويه[٨]، أن أسلوبه– رغم ما به من أخطاء نحو وصرف[٩] – إنفعل بمجريات الأحداث الجارفة، فتأثر بها تأثراً بالغاً، مما مكّنه أن يرسم لنا لوحة دموية لمجريات أحداث شمال غرب إفريقيا، التي اتسمت آنذاك بالشراسة والدمار نتيجة ظهور الوندال على مسرح الأحداث التاريخية، واكتساحهم كل مظاهر العمران التي صادفتهم فأتوا عليها، فانسألت الدماء أنهاراً، وعم الخراب كل موضع حلوا به.

وترجع أهمية هذا المصدر التاريخى الهام إلى تغطيته أحداث الشمال الإفريقي طوال القرن الخامس الميلادى تقريباً. وهكذا تساوى فى أهميته مع جريجوار دو تور[١٠] Cregoire de Tours

---

[6] يتكون أسم زعيم الوندال من مقطعين: الأول، "جيز" GEIS أى "رمح"؛ والثانى، "ريك" أى "ملك". أنظر:
Halphen. *Les barbares*. Paris. 1926. p. 37.

[7] Victoris episcope Vitensis, *Historia Persecutionis Africanae Provinciae Temporibus Geiserici et Hunerici Regnum Vandalorum*, dans M.G.H.a.a., III.1, éd. C. Halm, Berlin, 1879; éd. J.P.Migne, Patrologia Latinae, LVIII, Paris, 1862: éd. Michael Petschenig, C.S.E.L., Vll, Bonn, 1881. (سنشير إليه فيما بعد بـ Vita)

أى سيكون الأختصار على الوجه الآتى: *Vita*, M.G.H.; Éd. Petschenig, Éd. Migne. لكون أغلب المراجع الأوربية أوردته على شكل "Victor de Vita". وقد استعنا فى إعداد بحثنا هذا بثلاث طبعات لمصنف ڤيتا حرصاً منا على الاستفادة الكاملة بوجهات نظر الناشرين الثلاثة.

[8] Monceaux, P.. *Histoire de la littérature latine chétienne*, Paris, 1924, p. 155.

[9] De Labriolle, P., *Histoire de la Littérature latine chrétienne*, II, Par G. Bardy, Paris, 1947, pp. 691-692.

[10] يعد جريجوار دو تور Grégoire de Tours (ت ٤٩٤م) المصدر الوحيد الذي تناول بدايات ظهور الفرنجة وسط بلاد الغال حين شاركوا جنباً إلى جنب كحلفاء للقائد الرومانى فلافيوس إتيوس Flavius Aétius فى حربه ضد أتيلا Attila زعيم قبائل الهون Huns، وما صاحب ذلك من استقرارهم وتثبيت نفوذهم فى بلاد الغال فى عهد أبناء كلوفيس (٤٨١–٥١١م).زودنا جريجوار بمادة تاريخية غزيرة عن تاريخ الفرنجة غطت القرنين الخامس والسادس الميلاديين، نستخلص منها معلومات قيمة عن أصول الفرنجة، وازدياد نفوذهم، واستقراهم فى بلاد الغال، وغزواتهم خلال القرن السادس الميلادى وفيما يتعلق بالفترة التي لم يعاصرها والمتعلقة بأحداث دارت فى بلاد الغال، فقد نقل جريجوار عن سلبسيوس ألكسندر Sulpicius Alexander بروفيتوروس فريجيريدوس Renatus Profuturus

صاحب أهم مصدرعن "تاريخ الفرنجه"[11] Historia Francorum في القرن السادس الميلادى؛ وبركوبيوس[12] القيسارى Procope de Césarée الذي أرخ هو أيضاً فى نفس القرن عن الحروب الفارسية[13] Bellum Persicum، والحرب الوندالية[14]Bellum Vandalicum، والحرب القوطية[15] Bellum Gothicum.

على أية حال، "فتاريخ اضطهادت الوندال "لڤيكتور ڤيتنسس يعد من المصادر الأساسية التي لا غنى عنها لأى مؤرخ يتناول تاريخ الشمال الإفريقي خلال حكم كل من "جيزريك" (٤٢٩-٤٧٧م) Geisćric و "هونوريك"(٤٧٧-٤٨٤م) Huneric. إلا أنه يؤخذ عليه حقده البالغ، وعداءه الواضح للوندال؛ يتضح ذلك بجلاء فى مصنفه حين وصف سلالتهم بأنها "سلالة ثعابين[16] Serpentina

---

Frigeridus. هكذا زودنا جريجوار بمصدر بالغ الأهمية، كتبه مؤرخ نابه، تناول فيه أحداثاً جارفة وهامة، مما دفع المؤرخ أدريان دوفالوا Adrien De Valois إلى القول بأن هذا المصنف تناول "أعماق تاريخنا" *Fundus Historiae Nostrae*. أنظر: *Hadrien Valesius, Rerum Francirum* Libri 8, Paris, 1646 – 1628, Libri Octo. t.II. Prefectus p.4. أنظر أيضاً الدراسة التحليلية النقدية القيمة التي أعدها العالم الفرنسى جابريل مونو M.Gabriel Monod. *Etudes critiques sur les Sources de l'histoire Mérovingienne*. Paris, 1872. pp. 21 – 146.

[11] Grégoire de Tours. *Historia Francorum*, Éd. Kreusch, dans M.G.H.S. R. M.. I Hanovre, 1885.

[12] بروكوبيوس Procopius مؤرخ بيزنطى، ولد حوالى سنة ٥٥٠ فى قيسارية فى فلسطين. وكانت آنذاك أهم ولايات الامبرطورية البيزنطية فى الشرق. ويعد أهم مؤرخ لدارسى عهد جستنيان الأول (٥٢٥-٥٦٧م) (أنظر: Vasiliev, A.A., *Histoire de l'empire byzantin*, Paris, 1932, t.I, P.235) إذ زودنا فى كتاباته بلوحة ثرية جلية تكاد تكون كاملة عن عهده الملئ بالأحداث. فبعد أن درس بروكوبيوس القانون، أصبح مستشاراً وسكرتيراً للقائد البيزنطي الفذ بليزاريوس Bélisaire وشاركه فى حملاته ضد الوندال والقوط والفرس. كما أنه تميز كمؤرخ وكاتب. فكمؤرخ، تعد كتاباته بالغة الأهمية لكونه صديقاً حميماً لقائد عسكرى بيزنطى ساهم بحملاته على الوندال والقوط والفرس فى تسطير تاريخ الامبراطورية البيزنطية آنذاك. وقد استفاد بروكوبيوس من صداقته الحميمة تلك ، فى التفحص والاطلاع على كافة الوثائق الرسمية المحفوظة فى أرشيفات الامبراطورية البيزنطية؛ وزاد من أهمية كتاباته أنه شارك بشخصه فى الحملات العسكرية سالفة الذكر؛ كما جمع بعض المعلومات من أفواه المشاركين فى العمليات العسكرية. وفى سنة ٥٦٢م عين والياً على القسطنطينية. وقد قلد بروكوبيوس أسلوب كتابة كل من هيرودوت وثوكوديوس. وصنف تاريخ عهد جستنيان فى ثمانية كتب، يدخل فى عداد تاريخ عام لعصر جستنيان وشخصيات بلاطه والجزء الخاص بتاريخ الوندال – المذكور فى المتن– هو الذي يهم البحث. كما ألف كتباً أخرى. وتوفى حوالى سنة ٥٦٥م. للتفاصيل أنظر: Vasiliev, I, pp. 235-237; Ostrogorsky, G., *Histoire de l'etat byzantin*, Paris. 1977, p. 51; *History of the Byzantine State*, London, 1968, pp. 70-73 Bury, S.B., *History of the Later Roman Empire*, London, 1931, pp. 21- 24 Bouillet, p. 1549.
وبروكوبيوس نسبة إلى "قيسارية" فلسطين، وليس "قيصرية" آسيا الصغرى كما هو وارد فى كافة المراجع العربية.

[13] Procopius of Caesarea, *History of The Wars*, Book I, *The Persian War*, Éd.j. Haury, Leipzig, 1962.

[14] Procopius, Book III, *The Vandalic War*, Éd.j. Haury, Leipzig,1964.

[15] Procopius, Book II, *The Gothic War*, Éd. j. Haury, Leipzig, 1963.

[16] *Vita*, Éd.Petschenig, p. 103; Éd. M.G.H., p. 56; Éd. Migne p. 255.

Proles؛ وأن إفريقيا تحولت فى عهدهم إلى "جحيم"[١٧] Inferendis وأورد أنهم "شـــعب دمـــوى وشرير"[١٨] Populus ILLe Crudelis Ac Saeuus، إذ كانوا "يحرقون ويقتلون بلا ســبب"[١٩] Incendio Atque Homicidiis Totum Exterminates؛ وإفراطاً منهم فى الوحشية، كـــانوا يحرقون بتلذذ وطيب خاطر– الكنائس أكثر من المدن"[٢٠] UT Maioribus Incendiis Domus Orationis Magis Quam Urbes Cunctaque Oppida Concrearent كمـــا أن الغـــزاة "حرصوا على قطع أشجار الفاكهة المثمرة حتىٰ يحرموا اللاجئين الأفارقة الذين نجحوا فى الفـــرار إلى الجبال من التغذى عليها"[٢١] Post Eorum Transitum، ولم يتورعوا عن فتح أفواه ضحاياهم بأوتاد خشبية صغيرة لإكراههم على تجرع المياه المالحة والخل او ثفل الزيت[٢٢]. ومـــع ذلـــك، لا يمكننا إهمال هذا المصدر، إذ بدونه لأصبح تاريخ شمال غرب إفريقيـــا اواخـــر القـــرن الخـــامس الميلادى بمثابة صفحات مفقودة. لكونه المصدر الوحيد الذي انفرد بتغطيـــة أحـــداث هـــذة الحقبـــة التاريخية الهامة – كما سبق القول– ومما زاد من قيمتة وأهميتة أن مؤلفه ڤيكتور ڤيتنسس كان شاهد عيان للأحداث التي يسردها، بل واهتم اهتماماً بالغاً بجمع المادة التاريخية التي لم يكن شاهد عيـــان لها، فحرص على تحرى الدقة قدر استطاعتة قبل أن يسجلها فى مصنفه ولكونه كتب مـــصنفه بعـــد مضى ما يقرب من نصف قرن على انقضاء الأحداث؛ إتضح لنا بعد دراسة تحليلية نقدية مقارنة انة نقل البعض منها عن بوسيديوسPossi Dius أسقف جالمة (ڤالمة) الذي كتب مصنفه عـــن "ســـيرة القديس أوغسطين"[٢٣] Vita Augustini، فى العقد الثالث من القرن الخامس الميلادى، إذ شكل هذا المصدر الجزء الاكبر من المادة التاريخية التي لم يعاصرها والخاصة بـــالغزو الونـــدالي للـــشمال الإفريقي. كذلك نقل أحداثاً أخرى– لم يعاصرهاهى أيضاً عن"عـــصر البرابرة"[٢٤] De Tempore Barbarico".

---

17 *Vita*, Éd. Petschenig, III, 1, p. 72; Éd.M.G.H., p. 50; Éd. Migne p. 233.

18 *Vita*,I, 1, M.G.H., p.1; Éd. Migne p.181; Éd.Petschenig, p. 3.

19 *Vita*,I. 1. M.G.H., p.2; Éd. Petschenig, p.3. Éd. Migne p.182.

20 *Vita*,I. 1, M.G.H., p. 2; Éd. Petschenig, p. 4. ; Éd. Migne p. 183.

ومما يذكر أن القديس أوغسطين أورد أن رجال الإكليروس الأفارقة عانوا الأمرين من شتى ألوان العذاب الممـــارس ضدهم من قبل الوندال، لكي يكرهوهم على الاعتراف بأماكن إخفاء مقتنيات كنائسهم الثمينة. أنظـــر: St. Augustin, *Epist. CCXXVIII* 5, dans C.S.E.L., LVII, p. 487; Schaff, Ph., *Nicene and post-Nicene Fathers of the Christian Church*, Michigan, 1956, I, p. 578.

21 *Vita*, Éd. *M.G.H.*, p. 2; Éd. Petschenig, p. 4. ; Éd. Migne, p. 183

22 *Vita*, Éd. , *M.G.H.*, p. 3.

23 Possidius *De Calama, Vita Augustini*, dans Patrologiae Latinae, t. 32, Paris, 1877, قـــارن XXVIII, pp. 57-59; Possidus de Calama, *Vita Augustini*, Wérskotten, London, 1919, XXVIII, pp. 110–116، مع: *Vita*, éd M.G.H., pp. 3-4.

24 *De Tempore Barbarico*, éd. Morin, 1897 II, 6, pp. 204–205. مع *Vita*, Éd. M.G.H., III, I p. 3. قارن

ولقد حاول ڤيكتور ما بوسعه أن يُسمِع الامبراطورية الرومانية الشرقية آنـذاك صـوت الأ فارقة، والأخطار المحدقة بربوع بلاده، حرصاً منه على تخليصها من الغزاة الوندال. ومما يذكر أن الدوافع القوية كانت محركاً أساسيا هى أيضا.

وعلى هذا، يعد هذا المصنف التاريخي بمثابة دفاع . فقد كُتِبَ للوصول إلـى غايـة مـا؛ والدفاع عن قضية معينة. ونتج عن ذلك أن خلط ڤيكتور ڤيتنـسس Victor Vitensis – أحيانـا– الحقيقة بالخيال. إلا أن هذا لايقلل من أهميتة مصدره، فهذه عادة مؤرخى عصره المبكـر. ولكـن ينبغي أن نضع فى الاعتبار أن ڤيكتور كتب تاريخ مملكة الوندال وهو فى قمـة حقـدة علـى هـذا المستعمر المتعطش لسفك الدماء؛ لذا لم يكن منصفاً فى تأريخه لعدوه، بل كان كالمقهور الذي يؤرخ لقاهره.

هذة لمحة سريعة عن مدى أهمية المصنف بالنسبة لتاريخ الشمال الإفريقي فى عهد الونـدال وذلك فى أواخر القرن الخامس الميلادى. أما إذا انتقلنا إلى شخصية المـؤرخ ڤيكتـور ڤيتنـسس ، فالملاحظ أنه لم يرد ذكر له فى أى مصدر معاصر له وحتى فى المصادر القريبة العهد بـه. ومـن المعتقد أنه لم يكن فى عداد المشهورين آنذاك. ومع ذلك، فقد أجمعت مخطوطات مصنفه على أنـه كان أسقفا لمدينه فيتا Vita مسقط رأسه[٢٥]. والتي يعتقد أنها كانت تقع فى "بيزاسـين "Byzacéne – الواقعة جنوب تونس الحالية[٢٦] –، ومن المرجح أن تكون مدينة فيتا "Vita" هـى "بنـى دراج" Beni Derradj فى أيامنا هذه[٢٧].

ومن المؤكد أن "ڤيكتور ڤيتنسس" كان من بين المشاركين فى محاورات المجمع الـديني فـى العام الذي دعا إليه "هونوريك" بموجب مرسوم صادر فى ٢٠مايو سنة ٤٨٣م، وحُدّد ميعاده فى أول فبراير سنة ٤٨٤م فى العاصمة قرطاج[٢٨]، حـضره كـل أسـاقفة إفريقيـا[٢٩] مـن الكاثوليـك والأريوسيين؛ إذ أورد ما دار فيه من حوار ويؤكد ذلك قوله "أخبرونا" Fecerimus"– و"أخطرونا" Dixerimus و"أعلمونا"[٣٠] Libellus Noster.

ومن الواضح أيضا أن ڤيكتورلم يشغل كرسى الأسقفية فى فيتا حين أقدم على كتابة تاريخـه. نستخلص ذلك من خلال سرده أحداث اجتماع مؤتمر قرطاج Carthage الديني؛ فهو لا يتحدث على الاطلاق عن الأساقفة فى صيغة المتكلم الأول الجمع، بل فى صيغة المتكلم الثالث الجمع، إذ جاء فى

---

25 *Vita*, Éd., M.G.H., p.4; Éd. Petschenig, p.6 ; Éd. Migne, p. 185.

26 Bouillet, M. N., *Dictionaire universel d' histoire et de géographie*, Paris, 1871, p. 308.

27 Mesnage, J., *L' Afrique chrétienne*, Évêchés et Ruines, Antiques, Paris, 1912, p. 51.

28 *Vita*, II, Éd. , *M.G.H.*, p. 22; 40; 52-55; Mansi, t. 7, col. 1141.

29 يؤكـد ذلـك قولـه "...Per Uniuersam Africam constituti" أنظـر Vita, Éd., M.G.H., p.45; Éd.Petschenig, p.81.; Éd. Migne, p. 241.

والمقصود هنا كل البلدان الإفريقية الخاضعة للسيادة الوندالية

30 *Vita*, Éd., *M.G.H.*, p.40; Éd.Petschenig, p.72; Éd. Migne, pp. 233-234.

مـــصدره "أخطـــروا أســـقفيتنا"[٣١] Dixerunt Nostri Episcopi، و"أخطرونـــا" [٣٢] Nostri Dixerunt، و"كتبوا إلينا"[٣٣] Nostri Conscripserant. ويبدو أن الأمـــر يتعلـــق بالخطبـــاء العشرة المعينين من قبل الكاثوليك للتحدث باسمهم ونيابة عنهم[٣٤].

وبتفحص مصنف فيكتور، نلاحظ أنه نسخه فى قرطاج[٣٥]، إذ تواجد فى عاصمة الوندال فى الثامن عشر من يونيو سنة ٤٨٠م حين قرأ المستشار الملكي المكلف بالعلاقات بين الملك والكنيـــسة فى قرطاج "فيتارى"Vitarit" المرسوم الملكي الخاص بالتصريح بانتخاب أحدالأســـاقفة[٣٦]. كـــذلك كان فيكتور فى حضرة الأسقف أوجين[٣٧] Eugéne عندما أخبره أحد الأتقياء برؤية رآها ســـتتحقق بعد عامين، أى فى عام ٤٨٢م، مفادها أن الشمال الإفريقي سيشهد اضطهادات بالغـــة العنـــف[٣٨]. أضف إلى ما تقدم، فإن فيكتوركان لايزال فى قرطاج عندما تحركت قافلـــة المنفيـــين فـــى اتجـــاة الصحراء، يخيم عليها الألم والحزن، وتبعث على الشفقة [٣٩]. وقد صاحب المنفيـــين فـــى رحـــلة إبعادهم عن بلادهم، إلا أنه لم يُنفَ معهم[٤٠]. كما كان فيكتور فى حضرة الأسقف أوجين Eugéne فى قرطاج حين تسلم من الملك الوندالي هونوريك Huneric فى التاسع عشر من مايو ســـنة ٤٨٣م مرسومًا يدعوه لحضور المجمع الديني العام Colloque الذي حُددَ تاريخ انعقاده فـــى الأول مـــن

---

31 *Vita*. Éd.. *M.G.H.*. p.25; Éd.Petschenig, p.45; Éd. Migne, p. 218.

32 *Vita*. Éd., *M.G.H.*, p.25; Éd.Petschenig, p.45; Éd. Migne, p. 218.

33 *Vita*. Éd.. *M.G.H.*. p.25; Éd.Petschenig, p.46; Éd. Migne, p. 219.

34 *Vita*. Éd. . *M.G.H.*, p.25; Éd.Petschenig, p.45; Éd. Migne, p. 218.

35 إذ جاء فى مصدره "... مع أنه هنا فى قرطاج" Sicut Ibi Carthagine أنظـــر: *Vita*, Éd. . M.G.H., p. 3; Éd.Petschenig, p. 5.; Éd Migne, p.184. وفى مواضع آخرى ورد"... هناك في قرطـــاج" Ibi Carthagint.

أنظر: *Vita*, Éd. M.G.H. P.52; Éd.Petschenig, p. 96. ; Éd Migne, p. 151.

36 *Vita*. Éd. *M.G.H.*, p.14; Mansi, 7, col. 1142.

37 إسم "أوجين" Eugéne إسم يونانى، ويعد من الأسماء النادرة للغاية– آنذاك – فى الشمال الإفريقي. ومما يـــذكر أن بعض الأساقفة الأفارقة كانوا ذات أصول يونانية، منهم على سبيل المثال الأسقف فالريوس Valerius ســـلف القـــديس أوغسطين فى هيبـــو Hippo (أنظـــر: Possidius, *Vita Augustini*, Éd.H.T.Weiskotten, p. 48). ويبـــدو ان وقت تنصيبه أسقفاً على قرطاج، لم يكن من بين البارزين. ويكتفى فيكتور بوصفه بأنه "قديس ومحبوب من الله" Viro Santo Deoque Accepto. (أنظر: *Vita*, éd. M.H.,.14). وقد عين أسقفاً على قرطاج أواخر شهر يونيـــو ســـنة ٤٨١م. (أنظـــر: – Mansi. J.. *Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio*, VII, a. 451 – 492, col, 1143.). وكان أول إسم ورد فى قائمة المنفيين (أنظر: *Mansi*, VII, col. 1156). وتوفى ســـنة ٥٠٥م فى أحد أديرة اللانجدوك Languedoc بعد أن عانى من اضطهاد فى عهدى هونوريك وتراز اموند أنظر: Bouillet, M.N., *Dictionnaire Universel d' Histoire et de Géographie*, Paris, 1871, p. 632.

38 *Vita*, Éd. M.G.H., p.17. Ø ;Éd. Petschenig , pp. 30-31 Éd. Migne, p. 207.

39 Vita, Éd. M.G.H., p.19. Ø ;Éd. Petschenig , pp. 33-34 Éd. Migne, p. 203.

40 *Vita*, Éd. M.G.H., p.20; Éd.Petschenig, p.33. ; Éd. Migne, p. 209.

وقد تأكد لنا ذلك حين رجعنا إلى قائمة المنفيـــين المعنونـــة "Nomina Provinciae Proconsularis, vel qui In Exilium Missi Sunt". أنظر الاسماء فى: Mansi 7, cols. 1156 – 1164.

فبراير سنة ٤٨٤م[٤١]. وقد ظل فيكتور فى قرطاج عندما وصل الاضطهاد المذهبى أقصاه، حين رأى بأم عينيه عملية تعذيب كان ضحيتها طفل كاثوليكى يبلغ من العمر سبع سنوات، ينتمى إلى إحدى العائلات الشهيرة، علما بأنة لم يذكر اسمه[٤٢]. والذي يبعث على الدهشة أيضا أن فيكتور كان على معرفة جيدة بمسيحيى قرطاج، وقد ذكرأن هونوريك Huneric كلف الجلادين بالبقاء على أبواب الكنائس الكاثوليكية، وأوصاهم بمنع دخول الوندال للصلاة فيها[٤٣].

وهكذا، كل هذه الشواهد والدلائل تثبت أن فيكتور كان من رجال الدين فى قرطاج العاصمة حيث أقام فيها بصورة دائمة فى أعوام٤٨٠و٤٨١و٤٨٤م .أضف إلى ذلك استشهاده بنصوص من الكتاب المقدس أثناء سرده التاريخى.كان ذلك قبل ارتقائة مرتبة الأسقفية فى فيتا[٤٤].

محاولة تحديد سنة ميلاده وسنة وفاته:

ولا نعلم على وجة اليقين تاريخ ميلاد فيكتور فيتنسس، ولكن بما أنه نقل السرد التاريخى الذي أورده بوسيديوس "أسقف جالمة" (قالمة) Possidius de Calama فى كتابة "حياة أوغسطين" Vita Augustini حين تعرض فى مصنفه لغزوالوندال للشمال الإفريقي الذي لم يعاصره –كما سبق القول– لذا يمكن القول إنه لم يكن قد ولد بعد آنذاك، أوأنه كان لايزال طفلاً صغيراً. وعلى هذا الأساس، لايمكننا القول إنه ولد بين عامى ٤٢٥و٤٣٠م. ومن ناحية أخرى، كان سن الانخراط فى السلك الكنسى آنذاك فى حدود العقد الثالث. من هذا المنطلق لا يمكننا القول إنه ولد بعد عام ٤٥٠م. أما فيما يتعلق بسنة وفاته، فلا يمكن افتراضها بدقة كحال سنة ميلاده.

سنة كتابته لمصنفه:

يبقى لنا تحديد سنة كتابته لمصنفه، إذ نلاحظ فى هذا الصدد أن فيكتور أخبرنا فى مستهله أنه يسرد الأحداث بعد مضي ستة عقود من وصول الوندال إلى الحدود الإفريقية. علما بأننا نستطيع تحديد عملية نزول الوندال على الشاطئ الإفريقي بسنة ٤٢٩م. وعلى هذا الاساس، يمكن القول إن مصنف "تاريخ الاضطهادات التي لحقت بولاية إفريقية فى عهد ملكي الوندال "جيزريك وهونوريك" كتبه فيكتور فينتنسس سنة٤٨٩م. هذا بينما يرى العالم الفرنسى

"هـ.ف.جوتيية" E.F.Gauier فى كتاب "جنسريك ملك الوندال" Genseric roi des Vandales وأخذ عنه "فردينان لو" Ferdinand Lot فى كتابه "الغزوات الجرمانية" Les Invasions Germaniques أن فيكتور بدأ فى كتابة مصنفه حوالى عام ٤٨٦م[٤٥].

---

41 Vita, Éd. M.G.H., p.22; Éd.Petschenig, pp.39 - 40; Éd. Migne, p. 213-214.

42 *Vita*. Éd. M.G.H., p.52; Éd.Petschenig, p. 97; Éd. Migne, p. 252.

41 *Vita*, Éd. M.G.H., p.15; Éd.Petschenig, p. 27; Éd. Migne, p. 204.

44 *Vita*, Éd. M.G.H., p.19; Éd.Petschenig, p. 34; Éd. Migne, pp. 209–210.

45 Gautier, E. F., *Gensric roi de Vandales*, Paris, 1935, p. 168; Lot, F., *Les invasions Germaniques*, Paris, 1945, p. 145.

تحليل المصنف:

وبتصفح مصنف ڤيكتور ڤيتنسس، نلاحظ أنة قسمه إلى ثلاثة فصول، الاول: يتناول الأحداث من عام ٤٢٩ حتى عام ٤٧٧م، و:الثانى: يسرد أحداث يانير ٤٧٧ حتى فبراير٤٨٤م؛ أما الفصل الثالث فيبدأ من فبراير سنة ٤٨٤م وينتهى بديسمبر من نفس العام.

أحداث الفصل الأول:

هذا عن تقسيم المصدر إلى ثلاثة فصول. وإذا تفحصنا أحداث الفصل الاول، نلاحظ أن ڤيكتور خصصه بالكامل للحديث عن عهد جيزريك[٤٦] Geiseric بدءا من عام ٤٢٩م حتى وفاة فى ٢٤ يناير سنة ٤٧٧م.

انتقال الوندال إلى الشمال الإفريقي :

استهل ڤيكتور روايته عن انتقال الوندال إلى الشمال الإفريقي بسرد موجز لرواية المؤرخ المعاصر بوسيديوس أسقف ڤالمة علماً بأننا لا نعرف الكثير عن أحوال الوندال فى الفترة الواقعة بين شهر مايو سنة ٤٢٩م حتى نهاية ربيع عام ٤٣٠م، وهى الفترة التي بدأ فيها الوندال حصار هيبو رجيوس Hippo Regius. فالمصادر التي أشارت إلى نجاح جيزريك فى الأنتقال بسهولة بحراً على رأس جيشه من اسبانيا إلى إفريقيا جنحت إلى الإيجاز الشديد[٤٧]. فقد اكتفى بوسيديوس

---

[46] التزمنا – طبقا لما ورد فى ڤيكتور – بكتابة "جيزريك" Geisericus هكذا. (أنظر: Vita, Éd. Petschenig, p.3 sqq; Vita, Éd. Migne. p.181 sqq أنظر ايضاً: Procopius. *The Vandalic War*, p. 29 sqq) وورد فى المراجع الأجنبية تارة "جيزريك" Geiseric (أنظر: Pirenne. H., *Mahomet et Charlemagne*, Paris, 1970, p.12 sqq. Courtois, Ch., *Les Vandales et l' Afrique*, p. 157 sqq.) و"جنسريك" Gensèric. أنظر: E.F. Gautier, *Gensèric roi des Vandales*, Paris, 1935, p.7 sqq; Halhen, L., *Les Barbares*, Paris, 1936, p. 22 sqq. والملاحظ أنه فى ص ٢٢ أورد "جيزريك" Geiserich أو "جنسريك" Gensèric بينما التزم بجنسريك فى الصفحات التالية لصفحة ٢٢. كذلك ورد على شكل "جنسريك" فى: Desanges. J., "Un Témoignage Peu connu de Procope sur la Numidie Vandale et Byzantine", *Byzantion*, 1963. XXXIII, p. 49 sqq; Doutreloux, *Histoire de saint Augustin*, Bruxelles. 1892, .II, p.270 sqq; Martroye, F., *L' Occident á L' epoque Byzantine*, Paris, 1904, p. 179 sqq; Schmidt, L., *Histore des Vandales*, Paris, 1953, p. x1 sqq; Le Clercq, H., *Dictionnaire d' Archéologie Chrétienne de Liturgie, Art justinien*, Paris, 1928, VIII, col. 553.

أما المراجع العربية فقد ورد على شكل "جنزريك" فى اسحق عبيد: الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية – القاهرة ١٩٧٢م – ص ١٢٩، ١٤ وما بعدها؛ من آلاريك إلى جستنيان، القاهرة ١٩٧٧م، ص ١٣٨ وما بعدها؛ محمود سعيد عمران، مملكة الوندال فى الشمال الإفريقي، الإسكندرية ١٩٨٥، ص٥ وما بعدها؛ عبد الحفيظ محمد على، قوة الوندال البحرية، القاهرة ١٩٨٧م، ص٤ وما بعدها؛ إبراهيم على طرخان، شمال أفريقية والوندال، ص١٠٦ ومابعدها.

[47] عن أهم المصادر التي أشارت إلى أختيار الوندال مضيق جبل طارق أنظر:
Possidius, *Vita Augustini*, XXVII, Ed. H. T. Weiskotten. pp. 110 –112; Possidius, dans *Patrologiae Latinae*, XXXLL, Paris. 1877, pp.57 –59; Vita, *M.G.H*, III, I, pp. 3 – 4 (الملاحظ أن فيكتور دوفيتا نقل عن بوسيديوس) Hydace. *Chronique*, dans *M.G.H.a.a.*, 1894, X1, p. 21; Prosper, S., (403 – 463) *Chronique*, dans *M.G.H.a.a.*, 1894, 1X, p.472; Isidore Hispalenis

أسقف قـالمة Possidius de Calama في "سيرة القديس أوغـسطين" Vita Sancti Augustini بالقول:

"شاءت الإرادة الإلهية لجيوش عديدة من الوندال والآلان؛ وانخرط في صفوفهم أيضاً القوط وأشخاص ينتمون إلى كافة العناصر؛ كل هـؤلاء أبحـروا مـن اسبانيا، وانقضوا كالصاعقة على إفريقيا. وكان هؤلاء البرابرة مسلحين أحسن تسليح، ومتمرسين على فنون الحرب. فإذا بهم يعبرون موريتانيا، ومنها إنتقلوا إلى بقية أقاليمنا".(٤٨)

هذا عن رواية بوسيديوس؛ أما ڤيكتور ڤيتنسس، فقد نقل بإيجاز رواية بوسيديوس إذ اكتفـى بالقول إن جيزريك، على رأس، جيشه، إنتقل بسهوله بحراً من اسبانيا إلى إفريقيا.(٤٩)

في حين ذكر جريجوار دو تور Grégoire de Tours أن نقطة انطلاق الاسطول الواندالي كانت من الميناء الاسباني الصغير "يوليا ترادوكتا" Iulia Traducta، الواقع في أقصى جنوب شبة الجزيرة الأيبيرية(٥٠)، والذي عرف فيها بعد بميناء "طريف"(٥١) Tarifa؛ إذ قـام جيزريـك بنقـل جيوشه إلى إفريقية وبصحبته شعبه من الوندال والآلان، وانضم إليه أيضاً بعض القـوط القـاطنين

Episcopi, *Historia Wandalorum*, dans *M.G.H.a.a.*, X1, Berlin, 1894, p. 472; Cassiodore, *Chronique*, dans *M.G.H.a.a.*, X1, p. 156; Chronica Gallica, *Chronica Minora*, dans *M.G.H.a.a.*, 1X, p. 658.

48 إذ جاء فـي هـذا المـصدر: "... Divina Voluntate et Potestate Provenit, ... Immanium Hostium Vandalorum et Alanorum Commixtam Secum Habens Gothorum Gentem, Aliarumque Diversarum Personas, Ex Hispaniae Partibus Transmarinis, Navibus Africae influxisset Et Irruisset: Universaque per Loca Mauritaniarum etiam ad alias nostras Transiens Provinsias et Regiones,...". أنظر: Possidius, *Vita Augustini*, in *P.L.*, XXXII, Paris, 1877, pp. 57 – 58.

49 Vita,Éd. M.G.H., p. 1; Éd.Petschenig, p.3; Éd. Migne, p. 181.

50 *Grégoire de Tours*, dans *M.G.H.a.a.*, I, p. 61.

ومما يذكر أن المصادر لم تذكر مكان رسوهم حين أبحروا إلى الشمال الإفريقي.

51 "طريف" Tarifa أو "Julia Traducta" أو "جوزا" Joza أو "جزيرة الأندلس" (إذ جاء في :أخبـار مجموعـة"أن موسى بن نصير..." بعث رجلاً من مواليه يقال له "طريف" ... نزل بمراكبه جزيرة يقال لهـا "جزيـرة الأنـدلس"... ويقال لها أيضاً "جزيرة طريف" سميت به لنزوله بها" أنظر: مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأنـدلس وذكـر أمرائها والحروب الواقعة بينهم – تحقيق محمد زينهم محمد عرب – القاهرة ١٩٩٤م– ص٥٢). وطريف ميناء إسباني يطل على جبل طارق على بعد ٦٥ كم جنوب شرق قادس Cadix وهي مدينة في أقـصى جنـوب القـارة الأوربيـة وبالتالي أقرب مدينة إلى الشمال الإفريقي. وقد سميت على إسم طارق بن زياد فـاتح الأنـدلس. أنظـر: Bouillet, *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie*, p. 1840; E. Levi Provencal, *Art. Tarifa*, dans E.I., IV. p.699. Gautier, *Genséric*, p. 167.

وقد أخطأ كل من ڤيكتور دورڤيتا وجوردانس حين حددا المسافة من ميناء طريف إلى شاطئ الشمال الإفريقي. فـالأول حددها بـ ٢٣ ميل أي ١٨,٧٦كم (أنظر: *Vita, M.G.H.*,III, p. 2)؛ أمـا الثـاني، فقـد حـددها بـسبعة أميـال (أي١٠,٣٦٠كم) وصحة ذلك ١٣كم أنظر: *Boullet*, p. 1840

باسبانيا، وأقوام عديدة أسبانية أخرى وكانوا ما يقرب من ثمانين ألف نسمة، منهم خمسة عشر ألـف جندى. كان ذلك فى مايو سنة ٤٢٩م[٥٢].

ويلات الغزو الوندالي للشمال الإفريقي:

يتضح مما تقدم أن رواية بوسيديوس أسقف جالمة[٥٣] والتي أوجزها فيكتـور، تعـد أكمـل الروايات وإذا صدقنا ما ورد فى المصدرين، فإن الغزو والوندال لوطنهما صاحبته جرائم يندى لهـا الجبين فقد أورد فيكتور:

"أن الوندال بسطوا سيادتهم على كل البلاد، ناهبين، مخربين، جارفين، ذابحين كل من يقابلهم؛ حتى أن أشجار الفاكهة لم تسلم من عبثهم، وحتـى لا يتركـوا خلفهم ذلك المورد الغذائى الضعيف للذين كانوا قد التجأوا إلى الكهوف والجبال وفى خنادق وأماكن أخرى بعيدة. وكان الوندال، بعد تخـريبهم لمدينـة مـا، يعودون إليها ثانية ليبدأوا إتلافها من جديد. ولم يفلت من نهبهم أو سـلبهم أى مكان. وانصب أذاهم على الكنائس والمدافن والأديرة على وجة الخـصوص. فبيوت العبادة منيت بنصيب أكبر من ألسنة اللهب فاق نصيب المدن والكفـور الحصينة. فإذا وجدوا أبواب هذة الكنائس مغلقة، تكاتف الجميع على كـسرها بضربها بالفؤوس. كما استخدموا أبشع ألوان العذاب لإكراه أشـهر الأسـاقفة الشهداء على تسليم ثرواتهم الخاصة والذهب والفضة المتواجدين فى كنائسهم؛

---

[52] إختلفت المصادر فى تحديد تاريخ وصول الوندال إلى الشمال الإفريقـي، إذ أرجح تـارة تحـت أحـداث سـنة ٤٢٧م.(أنظر:.Prosper, *M.G.H.*, 1X, p. 472; *Cassiodore*, X1, p. 156). وتارة ثانية تحـت أحـداث سـنة ٤٢٨م (أنظر:.*Chronicon Paschale*, dans *C.S.H.B.*, I, p. 581) وتارة ثالثـة تحـت أحـداث سـنة ٤٢٩م. (أنظر: Hydace, *M.G.H.*, X1, p. 21) بل ويؤكد هيداس أن تاريخ وصول الوندال إلى الشمال الإفريقي كان فـى شهر مايو سنة ٤٢٩م. والملاحظ أن فيكتور دوفيتا لم يحـدد ذلـك بدقـة واضـحة، إذ أورد "فـى العـام الـستين" Sexagensimus Annus دون تحديد فى العام الستين من ماذا؟ (أنظر: Vita, *M.G.H.*, t.III, p.2.). علـى أيـة حال، يعد ما أورده هيداس أدق هذه التواريخ. وقد أخذ به جوتييه(أنظر: Gautier, p. 168). وقد أشار هيداس إلـى أن هذه الهجرة العسكرية كانت هجرة إستيطانية دائمة، إذ جـاء فيـه: "Cum Vandalis Omnibus Eorumque Familiis...Transit." (أنظر:.Hydace, dans *M.G.H.a.a.*, X1, p. 21) وحدد العـالم الفرنـسى كريـستيان كورتوا جيش جيزريك ما بين عشرة إلى خمسة عشر ألـف مقاتـل.(أنظـر: Courtois, C., *Les Vandales et l'Afrique*, Paris, 1955, p. 162.) هذا بينما ذكر جوتييه نقلاً عن لودويج شميت أن عدد الرجال من حملة السلاح لم يتعد ستة عـشرة الفـا. أنظـر: Gautier, *Genséric*, p. 138; Schmidt, L., *Histore des Vandales*, Paris, 1963, p. 57.

[53] الجدير بالذكر أن بوسيديوس ترك أسقفتيه جالمة، ليقف بجوار سيده القديس وأغسطين أثناء محنة حصاره فى "هيبو" Hippo. (أنظر:Possidius, p. 114) هذا بينما يذكر "بروسبير" أنه طرد مـن أسـقفيته سـنة ٤٣٧م. أنظـر: Prosper, *Chronique*, dans M.G.H.a.a., 1x, p. 475.

واستشهد عديد من رجال الاكليروس نتيجة العذاب الأليم الذي عانوا منه. وإذا كان بعض من التعساء قد ضعف أمام التعذيب، وأسرع بالتنازل عن كل ما يملك، كانوا يضاعفون من تعذيبه، معتقدين أنه لم يتنازل لهم عن كل شيئ، ولازال لديه الكثير؛ وكلما كانوا يستولون على الثروات، كلما اعتقدوا أن هناك الكثير لازال مخفيا. ولإجبار الناس على الاعتراف بأماكن ثرواتهم ،كانوا يفتحون فمهم بقوة مستخدمين فى ذلك أوتاد خشبية صغيرة، ثم يلقون بداخلها طين رائحته لا تطاق ولا تحتمل؛ أما البعض الآخر فقد كانوا يربطون جبهتم وسيقانهم بعنف وقوة لدرجة أن الحبال كانت تنقطع؛ فى حين أكرهوا الغالبية العظمى على ابتلاع كميات هائلة من مياة البحر والخل والُتمالة أى رواسب السوائل أو بعض المشروبات المشابهة حتى يتورم جسد هولأء التعساء .

ولم تتأثر قلوبهم البربرية المتحجرة لا بضعف الجنس ولا بشيخوخة المرء، ولا بشرف الأصل، ولا باحترام الملابس الكهنوتية. وليس باستطاعة أحد حصر أعداد الأساقفة و أشخاص المرتبة العالية الذين أجبروهم – كأنهم جمال أودواب– على حمل الأثقال الهائلة، ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يستعجلونهم فى السير، فكانوا يتساقطون ويموتون تحت أثقالهم. ولم يرحموا الشيوخ الطاعنين فى السن رغم ضعفهم البالغ. كما كانوا يقتلعون الاطفال من أذرع أمهاتهم، وببربرية ووحشية بالغة، يسحقونهم على الأرض. وكانوا يمسكون الأطفال من أرجلهم، ويشقون جسدهم نصفين.

ولم يكتفوا بإشعال النيران لتدمير بعض الآثار أو بعض الأبنية الهامة، بل كانوا ينزعون أسقفها الخشبية، ثم يدمرون حوائطها حتى تتساوى مع سطح الأرض؛ لدرجة أنه لم يبق أى مبنى من الأبنية الفخمة والتي كانت تزين المدن، إلا وتساوت كل هذة المبانى بمسطح الأرض بفعل الدمار. وأضحت الغالبية العظمى من المدن إما نادرة السكان، أو خاوية تماما لايسكنها أحد[٥٤]".

هكذا زودنا ڤيكتور ڤيتنسس بصورة مفصلة للجرائم البشعة التي ارتكبها الوندال بُعَيْدَ وصولهم إلى الشمال الإفريقي. ويتضح بجلاء المبالغة التي لايتقبلها العقل. وتقاربت روايته فى أجزاء منها مع رواية المؤرخ المعاصر "بوسيديوس" الذي اعتاد ڤيكتور النقل عنه – إذ أورد كاتب "سيرة القديس أوغسطين:

---

[54] Vita, Éd. , *M.G.H.*, III , pp..3-4; Éd.Petschenig, pp.3-5; Migne, pp. 181-183; St. Augstin, *Epistolae*, CCXXVIII, *C.S.E.L.*, LVII, pp. 484-486.

" ... في كل مكان حل الوندال به، هجره سكانه هرباً من جرائمهم الدموية و أعمال القتل والسلب والنهب و التخريب. فجرائمهم غريبة ولايمكن حصرها. ولم يفلت من قبضتهم لا الشخص الطاعن فى السن ولا نوع الجنس إذا كان طفلا أو امرأة. ولم يسلم من حنقهم الأساقفة و رجال الاكليروس والكنائس والزينات و الأوانى المقدسة. أما أوغسطين، ذلك الرجل التقى حبيب الله، فقد شاهد بدايات ما الحقوه بالبلاد من خراب مفزع، وتنبأ بالاحداث التالية. وتأثر بهذة الأحداث أكثر من غيره، واضعاً فى اعتباره المخاطر التي ستطال وتلحق بسكان الشمال الإفريقي، إذ ليس من السهل عليهم الإفلات من الموت المحقق.

فحسب قوله: لقد أصبحت الدموع بمثابة خبزه الذي يتغذى علية ليل نهار"

وهكذا أنهى القديس أوغسطين شيخوختة فى مرارة وحزن. ولا أحد يستطيع أن يدرك مدى تأثره بهذه الأحداث(٥٥).

أما النص الثالث الذي يصف أحوال الشمال الإفريقي آنذاك، فقد كان شديد الإيجاز، إذ كتب "كابريولوس" أسقف قرطاج Capreolus de Carthage تحت أحداث سنة ٤٣١م، أنه لا يستطيع استدعاء أساقفة إفريقيا لحضور مؤتمر دينى، لأن جموعاً غفيرة من الاعداء – أى الوندال– اجتاحوا البلاد:

" ... فقطعوا كل الطرق، وأقاموا المذابح للسكان، لاذوا بالفرار إلى موضع آخر. وفى كل مكان حلوا به، وعلى مدى البصر، لم يكن المرء يرى سوى الخراب الذي أتى على كل شيء والدمار والبؤس الذي عم ربوع البلاد(٥٦)".

وأخيرا هناك النص الرابع ورد فى رسالة تحت رقم ٢٢٨ بتاريخ ٤٢٩م، أرسلها القديس أوغسطين إلي أحد الأساقفة ويدعى" كودفلتديوس Quodvoultdeus" أسقف ثيابينا Thiabeena الواقعة بين هيبو Hippon (سوق أهراس حاليا). كان كودفلتديوس قد طلب النصيحة من أوغسطين فيما يجب عمله بصدد أحوال وأوضاع الأساقفة، فرد عليه قائلا:

" بعد أن أرسلت إليكم نسخة من الخطاب الذي كتبه إلىّ شقيقنا وزميلنا كودفلتديوس، أعتقد أننى تحررت من المسئولية التي تفرضونها علىّ، وعندما سألتمونى عن مسلككم الواجب اتباعه إزاء أخطار العصر الذي نعيشه الآن، قلت إنه ينبغي أن نترك الحرية للذين يبحثون عن أماكن أمينة بعيداً عن الأخطار، إذا تمكنوا من ذلك. أما نحن، فإخلاصاً لوظائفنا، وارتباطاً بالله ومحبته، لاينبغي أن نترك كنائسنا التي كلفنا بها ... وحسب ما ورد إلينا من

---

55 Possidius, *Vita Sancti Augustini*, *P.L.*, col. 58.

56 *Capreolus de Carthage*, Ep., II, dans *P.L.*, III, col. 845.

معلومات، قال أحد الأساقفة "إذا كان الله قد أمرنا أن نهرب من الاضطهادات بأن نلوذ بالفرار عندما نجنى ثمار الاستشهاد، فهل يوجد مبرر أقوى من هذا. فبالفرار نستطيع أن نتجنب موتاً لافائدة من حدوثه خاصة إذا كان البرابرة هم الذين يهددونا" وهذا منطقى ويحتذى به، ولكنه لايتعلق على الإطلاق بالأشخاص الذين يؤدون وظائف متعلقة بالكنائس[٥٧]"

على أية حال، هذه النصوص المتفرقة والمختلفة توضح بجلاء الإرتباك والاضطراب الذي ساد قاطنى الشمال الإفريقي وعلى وجه الخصوص رجال الكنيسة الكاثوليكية وذلك عشية وصول الغزاة الوندال. ولكن-كما سبق القول- ينبغي أن نتعامل مع هذه النصوص بحرص بالغ وقراءة متأنية؛ إذ يجب أن نضع فى اعتبارنا العداء بين الكنائس الكاثوليكية والأريوسية من ناحية، وأعمال العنف التي ارتكبت أيضا عقب انتقام الدوناتيين وعصابات من القوم غير المنضبطين الذين لقبهم خصومهم بـ"الدواريين" Circoncellions بمعنى "المتسكعين حول المزارع " من السلطة الامبراطورية التي ساءت حالتها من ناحية أخرى. إضافة إلى ذلك، فإن الأثار لم تزودنا بدليل مادى ثابت يؤكد حريق إحدى المدن أو الأبنية نستطيع أن ننسبها بطريقة لاتدع مجالا للشك إلى الوندال. فلم يصلنا بصدد ذلك أى نقش على المقابر، ما عدا نقش "الطاوة" Altava الذي حفظ لنا ذكرى ضحايا لا حصر لهم نتيجة الغزو الوندالي[٥٨]. ومن بين كل هؤلاء الأساقفة الذين عوملوا بقسوة بالغة، لم يصل إلى معلوماتنا سوى شهيدين هما "بامبينيانوس دوفيتا " Pampinianus de Vita ومانسويتس دوروس Mansuetus d' urus الذي يقال إنهما أحرقا بشفرات الحديد المحمى[٥٩]. والملاحظ أن الكنيسة الكاثوليكية فى الشمال الإفريقي آنذاك، لم تقم بحصر شهدائها. والحدث الوحيد المؤكد هوهتك عرض الراهبات[٦٠].

انتصارات جيزريك المتلاحقة:

ومن المعتقد أن جيزريك نجح فى غزو الجزء الأكبر من نوميديا (الجزائر الحالية) Numidie، ثم اكتسح افريقية القنصلية[٦١] (تونس الحالية) Africa Proconsularis والتي بعد سقوطها – أطلق عليها اسم "زغوان" Zeugitame وكانت عاصمتها قرطاج Carthage.

---

57 *Nicene and Post-Nicene Fathers of Christian Church*, Éd. Philippe, Schaff, Michigan, 1956, Vol. I, p. 577.

58 St. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du nord, Paris, 1929, V, pp. 114-116.

59 Vita, Éd. M.G.H., p.4; Éd. Petschenig, p. 6; Éd Migne, p. 185.

60 S. Léon, *Epist.*, 8,11, dans *P.L.* , LIV, col. 653.655.

61 بعد سقوط إفريقية القنصلية فى قبضة الوندال، أطلق عليها إسم "زغوان" Zeugitane ،إذ أورد فيكتور:"
Zeugitanam Uel Proconsularem" (أنظر: *Vita, M.G.H*, p. 4) وكانت عاصمتها قرطاج أنظر: *Vita, M.G.H.*, p. 4; Petschnig, p. 7; Migne, p. 186.

وبعد ذلك انقض على بيزاسين[٦٢] (وهى مدينة سوسة الحالية) Byzacène. وبعد أن ألحق جيزريك الهزائم بالجيش الرومانى على حدود إفريقية القنصلية[٦٣] Africa Proconsularis، إنسحب قائد الجيش المهزوم إلى" هيبورجيوس Hippo Regius" (عنابة حاليا) الواقعة على بعد مائتى ميل تقريبا إلى الغرب من قرطاج، فبدأ الملك الوندالي بمحاصرتها[٦٤]وذلك فى يونيو سنة ٤٣٠م. وفى الشهر الثالث من هذا الحصار، فى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ٤٣٠م، توفى القديس أوغسطين وكان فى السادسة والسبعين من عمره، العام الأربعين من أسقفيته. وظلت المدينة الغاصة باللاجئين صامدة فى وجة الغزاة لمدة أربعة عشر شهراً، إلى أن اجتاحوها فى يوليو ٤٣١م، فكان نصيبها النار والدمار[٦٥].

ويرى "هـ.ف.جوتييه" E.F.Gautier الذي أعد كتابا بعنوان "جنسريك ملك الوندال " Gnséric Roi Des Vandales وذلك أثناء قيامه بالتدريس فى جامعة الجزائر عقر دار الوندال، يرى أن من أهم نتائج طول أمد حصار هيبوجيوس Hippo Regius إنقاذ قرطاج Carthage من السقوط فى قبضة الغزاة، إذ حرصت الامبروطورية الرومانية آنذاك على تحصينها وتقويتها وتأمينها وإسناد عملية الدفاع عنها إلى مقاتلين يتسمون باليقظة، لكونها غنيمة جيزريك المرتقبة. فى حين أدرك الزعيم الوندالي –حرصاً على جيشة وأسطوله– التخلى عن مهاجمة مدينة وميناء قرطاج انتظاراً للظروف المواتية[٦٦].هذا وينفرد "بروكوبيوس Procopius – الذي كتب مصنفه بعد مضى قرن من الزمان – بالقول إن "جيزريك" خشى من وصول جيوش من روما والقسطنطينية لقتال الوندال، وبالتالى يفقد الغنائم الطائلة التي حصدها من المدن التي اجتاحها[٦٧]. ويعد هذا سبباً من الأسباب. إلا أن تفحص مجريات الأحداث يجعلنا نضع فى الحسبان أن معاناة الجيش الوندالي من

---

62 *Vita*, M.G.H., p. 4; Petschenig, p. 7; Migne, p. 186.
و"بيزاسين" عاصمتها آنذالك هدرامنتوم Hadramentum، وهى مدينة سوسة الحالية. وبيزاسين هى سهل تونس فى أيامنا هذه. أنظر: Gautier, *Genseric*, p. 217.

63 إنفرد بروكوبيوس – دون غيره من المصادر– بذكر هذه المعركة إلا أنه لم يحدد موقعها بدقة. أنظر: *Pocopius*, I, p. 32 .

64 للتفاصيل عن هذا الحصار، أنظر: *Vita*, *M.G.H.*, III, p. 4; *Procopius*, I, pp. 323-325; Prosper, IX, p.473. والجدير بالذكر أن حصار هيبو بدأ فى يونيو سنة ٤٣٠م، وأن القديس أغسطين توفى فى ٢٨ أوغسطس سنة ٤٣٠م وحسب قول كاتب سيرته، توفى فى الشهر الثالث من الحصار (*Prosper*, Ix, p. 473; Possidius, p. 114)و "هيبو رجيوس" Hippo Regius كانت أكبر مدن نوميديا (الجزائر حالياً)، وكانت مستعمرة بحرية غربى قرطاج وقد أطلق عليها رجيوس Regius، لأنها كانت مقاماً لملوك نوميديا. وشهدت وفاه القديس أوغسطين نور الكنيسة الكاثوليكية ودعامتها. أنظر: *Bouillet*, p. 876.

65 فى هذا المعنى أورد شاهد العيان بوسيديوس فى مصدره "سيرة القديس أوغسطين": "Ferme Quatuordecim Mensibus" أنظر: *Possidius*, p. 144

66 *Gautier*, p. 178.

67 Procopius, *B.V.*, I, 413, p. 37; Ed. J. Haury, I, p. 326.

طول أمد الحصار أمام هيبو رجيوس رغم عزلها بعد نجاح الغزاة فى فرض حصار بحرى عليها دام أربعة عشر شهراً، كان له عواقبه الوخيمة على معنويات زعيمهم جيزريك، وكان من الطبيعى أن ينقّض جيشه على المناطق المجاورة التي لحق بها التدمير على يد الغزاة، ولم تف تلك المناطق باحتياجاتهم المعيشية، فتعرضوا بالتالى للجوع والتعب والأمراض[٦٨]. كذلك كان على الزعيم الوندالي مواجهة أعداء الداخل. فلكونه ابن مخطية، أصرّ كبار قومه على التأكيد أن أبناء أخيه غير الشقيق جوندريك Gunderic هم أحق منه بعرش الوندال. فما كان منه أن قتلهم، وأغرق أمهم فى نهر أمبساجا[٦٩] Ampsaga. وأعقب ذلك اندلاع العديد من المؤامرات الخطيرة، فأخذ يقتل كل من يشك فى ولائه له. كذلك كان عليه مواجهة ثوارت البربر والجرمان والكاثوليك والدوناتيين[٧٠]. كما وضع فى الاعتبار صعوبة الاستيلاء على سيرتا Cirta لكونها بمثابة قلعة داخلية حصينة لا ترام، جاثمة على شاطئ صخرى عمودى يصل ارتفاعه بين مائتين وثلاثمائه متر. وتتحكم سيرتا فى مداخل السهول المنبسطة التي يقيم فيها الدوناتيون، وكذا تتحكم فى الجبال التي يقطنها البربر. لذا فلا يوجد من يناصر الوندال فى ذلك الموضع، وبالتالى تخلى جزريك عن مهاجمتها، إذ سيتطلب ذلك الكثير من التضحيات. وتدارك أنه إذا فكر فى محاصرتها، فسيمضى وقتاً طويلاً حتى يتمكن من إسقاطها[٧١].

من كل ما تقدم، رأى جيزريك بثاقب بصره وبصيرته، التخلى عن فنون الحرب، واستخدام فنون السلم، هادفاً من ذلك، تحقيق حلمه فى إقامة مملكة وندالية فى إفريقية من ناحية، وإخفاء أطماعه التوسعية على حساب الامبراطورية الرومانية بلبس ثوب الصديق الذي لا يُخشّى بأسه من ناحية أخرى.

---

68 أورد المؤرخ المعاصر بوسيدس فى هذا المعنى: "Quam Urbem Ferme Quatuordecim Mensibus conclusione Obserunt" أنظر: Possidius, Migne, p. 59

69 *Vita*, II, 14, M.G.H, III, p. 16; *Petschenig*, p. 7; *Migne*, p. 186.

70 *Vita*, I, 30, M.G.H., pp. 8-10; *Migne*, pp. 187-190.
ولقد ظهرت الدوناتية فى شمال إفريقيا فى عهد الامبراطور الرومانى دقلديانوس(٢٨٤-٣٠٥م)، وتنسب إلى دوناتوس Donatus أسقف إحدى مدن نوميديا. والدوناتية ثورة اجتماعية ضد كبار رجال الاقطاع الرومان الأثرياء لإقامة العدل. وقد اعتنقها آنذاك فقراء الشمال الإفريقي الذين ارتكبوا جرائم السلب والنهب والقتل راح ضحيتها أثريا رجال الاقطاع الكاثوليك والاساقفة. (للتفاصيل أنظر: Gautier, *Genseric*, pp. 129-137; *Bouillet*, p.545)
وبتولى القديس أوغسطين عرش أسقفية هيبو سنة ٣٩٦م، حرص على إقناع الأساقفة الدوناتيين للعدول عن هرطقتهم، ولتنفيذ نظرياتهم، أصدر العديد من الرسائل و المواعظ والمقولات، ناصره فى موقفه هذا الاساقفة الكاثوليك، واستمرت محاولات تلك بين عامى (٤٠١ - ٤٠٣م). أنظر: Schaff, P., *Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, Michigan. 1956, I. pp. 90, 162; Hamman, A. G., *La vie quotidienne en Afrique du nord au temps de Saint Augustin*, Paris, 1979, pp. 200 – 203.

71 *Gautier*, p. 178 .

هكذا حوالى نهاية عام ٤٣١م، تمكن جيزريك من بسط سيادته على إفريقية ما عدا سيرتا وقرطاج[٧٢]. ومع ذلك، وهو أوج انتصاره، أبدى استعداده لإرسال إبنه هونوريك Huneric رهينة، إثباتاً لحسن نواياه، وتأكيداً للولاء للأمبراطورية الرومانية[٧٣]. إلا أنه فى الواقع كان غير صادق فى مسعاه للصلح، بل كان فى أمس الحاجة إلى راحة جيشه بعد العناء الذي لاقاه من طول أمد الحصار، إضافة إلى مواجهة مشاكله الداخلية السالف ذكرها.

وبالفعل، أرسل الامبراطور فالنتيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥م) Valentinian ووالدته بلاسيديا Placidia إبنة الامبراطور هونوريوس Honorius سفيراً من قبلهما يدعى تريجتيوس Trigetius، وأنتهى الأمر بعقد هدنة مع جيزريك فى هيبو رجيوس فى ١١ فبراير سنة ٤٣٥م، حددت مؤقتاً العلاقة بين الامبراطورية الرومانية وجيزريك ملك الوندال الطموح[٧٤]، ونتج عن ذلك أن أصبحت هيبو رجيوس – منذ عام ٤٣٦م عاصمة لمملكة الوندال[٧٥].

ويؤخذ على فيكتور فيتنسس عدم الإشارة إلى تلك الهدنة، لكونه ينقل أحداث الفترة المبكرة من تاريخ الوندال عن بوسيديوس Possidus أسقف جالمة Galama وغيره من المصادر المفقودة التي لم يذكرها؛ هذا بينما وردت فى معظم المصادر اللاتينية الأخرى[٧٦]. أما بروكوبيوس، فقد خلط بين هدنة سنة ٤٣٥م ومعاهدة سنة ٤٤٢م[٧٧].

على أية حال، بمقتضى هدنة ١١ فبراير سنة ٤٣٥م، أصبح الوندال معاهدين وحلفاء للإمبراطورية الرومانية مقابل أداء جزية سنوية خفيفة، مع السماح لهم بالاستيطان فى مقاطعات موريتانيا الثلاث، وقسم من نوميديا بما فيها جالمة باستثناء قرطاج. وبالفعل– وكما سبق أن وعد–

---

[72] تحدث بوسيديوس – شاهد العيان عن بداية حصار هيبو Hippo وذلك فى يونيو ٤٣٠م – قائلاً "إن الكنائس الإفريقية دمرت بالكامل، ولم يبق صامدا إلا ثلاث: كنيسة قرطاج، وكنيسة هيبو، وكنيسة سيرتا Cirta (قسنطينة حالياً). فتلك الكنائس افلتت بفضل العناية الالهية الخاصة التي حمتها من الدمار. أما المدن، فقد صمدت فى وجه الغزاة بفضل الله أيضاً وشجاعة سكانها فى الاستماتة فى الدفاع عنها وسط الدمار والخراب" للتفاصيل أنظر: *Possidius*, pp. 112–118.

[73] Schmidt, L., *Histoire des Vandales*, Trad. H. E. del Medico, Paris 1953, pp. 82 - 83; *Gautier*, 1953, p. 178.

[74] أشار إلى ذلك أحد مصادر القرن السادس الميلادى أنظر: *Laterculus Regnum Wandalorum et Alanorum*, 2, dans M.G.H.a.a; XIII, p. 458. إذا جاء فى هذا المصدر: "Geisericus Tribus Annis Hippone Regio Exemptis Carthaginen Occupat.."

[75] *Laterculus Regnum Wandalorum et Alanorum*, 2, dans *M.G.H.a.a* , XIII, p. 458: *Epitome Carthaginiensis*, dans *M.G.H a a.*, Ix, p. 497. وقد تطابقت الرواية فى المصدرين، إذ أورد المصدر الثاني: "... Geisericus Tribus Annis Hippone Regio Exemptis Carthaginen occupant ..."

[76] أنظر على سبيل المثال المصدرين السابقين وكذلك: Prosper, pp. 474 - 479; Cassiodore. *Chron*. 1225, dans *M.G.H.a.a.*, x1, p. 156; Isidore, *Hist Wand.*, dans *M.G.H.a.a.*, XI, p. 297; *Paulus Diaconns*, p. 199.

[77] Procopius, *B V.*, I, 4, 13, p. 37; ed. J. HAury, I, p. 326 .

أرسل جيزريك ابنه هونوريكIlunric رهينة مقابل هذه الهدنه؛ لكنه سرعان ما عاد إلى والده بعد فترة وجيزة(٧٨)

جيزريك يوظف هدنة سنة ٤٣٥م لصالحه:

هكذا اعترفت هدنة سنة ٤٣٥م اعترافاً رسمياً بشرعية الوجود الوندالي على الأراضي الإفريقية. أما جيزريك، فقد وظف هذه الهدنة لصالحه، إذ اعتبرها مهلة تتيح له فرصة التخلص من أى هجوم مباغت تقوم به الامبراطورية الرومانية، فتضيع عليه فرصة توطيد أقدامه فى البلاد التي قام بغزوها. والأهم من ذلك، أنه حوّل مراكز الاستيطان التي سمحت له بها الامبراطورية إلى مراكز عسكرية ونقاط ارتكاز، للوثوب منها على البقية الباقية من أملاك الرومان فى الشمال الإفريقي؛ كذلك انطلقت من سواحل تلك البلدان، السفن الوندالية، لتقوم بأعمال القرصنة فى حوض البحر المتوسط، وتحتل فيما بعد جزره المتناثرة فى ربوعه، إذ أورد بروسبير Prosper تحت أحداث سنة ٤٣٧م أن قراصنة البحر من البرابرة من معاهدى الامبراطورية قاموا بإغارتهم البحرية (٧٩).

وتحت أحداث سنة ٤٣٨م، يذكر أن تلك الاغارات طالت جزيرة صقلية التي لحق بها الدمار والخراب(٨٠)؛ إلا أن الوندال رحلوا عنها عندما وردت إلى مسا معهم أن الامبراطرية تعد حملة لمجابهتهم؛ وبالفعل ابحرت تلك الحملة إلى صقلية دون عائق يذكر.

على أية حال، إنتهت تلك الإغارات البحرية باستيلاء جيزريك على جزر سردينيا والبليار وكورسيكا والجزء الغربى من صقلية. علماً بأنه تأكد الاحتلال الوندالي لجزيرة صقلية سنة ٤٦٨م(٨١).

ومما يذكر أن طوال العقود الأربعة الأخيرة من حكم جيزريك(ت.٤٧٧م)، شهدت المدن المطلة على ساحل البحر المتوسط أعمال قرصنة، ذكر ذلك فيكتور وبروكوبيوس، إذ أوردا أن إيطاليا وصقلية ومالطة وسواحل اسبانيا المطلة على المحيط الأطلنطى وساحل إيلليريا وبلاد

---

78 Prosper, *Chron*, 1321, dans *M.G.H.a.a*, p. 474.

وقد عبر بروسبير عن هذا الاستيطان الوندالى بقوله: "Data...ad Habitandum" وأنظر أيضاً: Isidore de Séville, *Hist. Vand.*, 74, dans *M.G.H.a.a*, p. 297. وكان هذا المصدر أكثر تحديداً إذ جاء في: "Partem Africa Quam... Possederant"

79 جاء فى بروسبير: "Eodem Anno Piraticam Babari Foederatorum Desertores Exercuerunt" أنظر: Prosper, *Chron.* C.1330, p. 475.

80 فى هذا الصدد أورد بروسبير: "Hoc Quoque Anno (438) "IiDem Piratae Multas Insulas, Sed Praecipue Siciliam Vastavere. أنظر: Prosper, *Chron.* C. 1332, pp. 475 – 476.

81 Courtois, *Les Vandales et l' Afrique*, p. 191 .

البلوبونيز وجزر بحر إيجة بل حتى الإسكندرية، كل هذه المواضع تعرضت لاجتياح وتدمير ونهب القراصنة الوندال[٨٢].

إستلاء جيزريك على قرطاج:

وتحقيقاً لأحلامه فى تكوين مملكة ونداليه مترامية الأطراف، لم يركن جيزريك إلى السكينة وفق الهدنة سالفة الذكر، بل عقب إبرامها، عمل مابوسعه لتعزيز قواته العسكرية وتدعيم موقفه. ولمّا لم يبق له من مبرر للمهادنة، طوى الأحداث طيّاً، واستولى على قرطاج – عاصمة ولاية إفريقية وأكبر مدن غرب البحر المتوسط– دون مقاومة تذكر وذلك فى التاسع عشر من أكتوبر سنة ٤٣٩م[٨٣].

ويؤخذ على ڤيكتور ڤيتنسس أنه ذكر أحداث سقوط قرطاج فى أيدى الوندال بإختصار بالغ، ودون تحديد تاريخ ذلك الحدث الهام[٨٤]. وقد اتخذها جيزريك عاصمة لمملكة الوندال فى الشمال الإفريقي بدلا من هيبو Hippo التي اتخذها عاصمة له بعد توقيع هدنة فبراير سنة ٤٣٥م[٨٥]، فغدت قرطاج "روما العالم الإفريقي"[٨٦]. كما فقدت الامبراطورية البيزنطية أعظم قواعدها البحرية غرب البحر المتوسط لصالح الوندال، تلك القوة البحرية الفتية. وهكذا تحول البحر المتوسط من بحيرة بيزنطية إلى بحيرة ونداليه.

---

82 *Vita*, Éd. Petschenig, pp. 22 – 23: Vita, Éd. Migne, p. 202; *Procopius*, p. 53. Cf. Pirenne, H., *Mahomet et Charlemagne*, Paris, 1970, p. 12.

83 أكد بروسبيير Prosper أن قرطاج سقطت فى أيدى الوندال فى العام السابع عشر من قنصلية ثيودوسيوس الثانى Théodosius II، ويقابل ذلك سنة ٤٣٩م. ويؤكد من ناحية ثانية أن المدينة خضعت للرومان مدة ٥٨٥ سنة، وهو رقم دقيق وصحيح، إذ إن المدينة إستولى عليها الرومان سنة ١٤٦ ق.م. (أنظر Prosper,Chron., 1339, dans *M.G.H.a.a.*, IX, p. 477.). وقد اتفق هيداس Hydace مع بروسبير، إذ أورد أن المدينة سقطت فى العام الخامس عشر من حكم فلنتيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥م) Valentinien III علماً بأن العام الأول من حكم فالنتيان الثالث كان سنة ٤٢٥م. (أنظر Hydace, *Chron*, 115, *M.G.H.a.a.*, X1, p.23.) وقد اتفقت غالبية المصادر على هذا التحديد التاريخى. أنظر: Marcellinus Comes, *Chron.*, a. 439, 3, dans M.G.H.a.a., X1, p. 80; Cassiodore, *Chron*, 1233, X1, p. 156.

والملاحظ أن الكونت مارسلينوس سجل تاريخ سقوط قرطاج فى ٢٣ أكتوبر والجدير بالتسجيل أن كل من ڤيكتور وإيزيدور سجلا سقوط قرطاج دون تأريخ سنة وقوع الحدث. أنظر: *Victor de Vita*, I, 12, dans M.G.H.a.a., III, p. 4; éd. Petschenig, pp. 6 – 7; Éd. Migne, pp. 186; Isidore, *Hist. Vand.*, 75, dans M.G.H.a.a, X1, p. 297.

84 *Vita*, M.G.H., p. 4; Éd. Petschenig, pp. 6 – 7; Éd. Migne, p. 186.

85 *Lareculus Regum Wandalorum et Alanorum*, M.G.H.a.a., XIII, p. 458.

86 Deanesly, M. A., *A History of Early, Mediaeval Europe*, London, 1956, p. 76; Hodgkin, T., *Italy and her Invaders*, London, 1886 – 1899, 8 Vols, II, pp. 250 – 251.

أنظر أيضاً: إدوراد جيبون: اضمحلال الامبرطورية الرومانية وسقوطها – ترجمة لويس إسكندر – القاهرة ١٩٦٩، جـ ٢، ص ٢٦٣.

نتائج الاحتلال الوندالي لقرطاج:

ومما لا شك فيه، فإن جيزريك جعل من احتلاله لقرطاج نقطة انطلاق لعهد جديد، فقد أراد الملك الوندالي تأصيل القطيعة مع الامبراطورية الرومانية، وذلك بتأكيد استقلاله التام عنها، وإعلان نفسه ملكاً على إفريقية وقرطاج، وأكد ذلك باعتبار يوم ١٩ أكتوبر سنة ٤٣٩م أول يوم من سني حكمه. وبدأ منذئذ السنة الأولى من التاريخ الوندالي. علماً بأنه لم يلجأ إلى ذلك أى ملك جرماني من قبل. إضافة إلى ما تقدم، فقد اعتبر الزعيم الوندالي التاريخ سالف الذكر أول أيام حربه الضارية ضد الامبراطورية الرومانية، خاصة بعد أن ظفر بأحسن ميناء في غربي البحر المتوسط، فقرطاج تعد أعظم قاعدة بحرية للامبرطورية الرومانية عند نقطة التقاء القسمين الغربي والشرقي من البحر المتوسط، كما استحوذ على القمح الذي كان يصدر من قبل إلى روما، فهددها هكذا بالمجاعة[٨٧].

أحوال قرطاج وسكانها بُعَيْدَ الغزو الوندالي:

ولم يسلم سكان قرطاج من أذاه، فقد عانوا الأمرين من اضطهاده، واستخدام العنف لإكراه السكان على تسليم ما يكتنزون من ذهب وفضة وجواهر، وعاقب بالقتل وشتى الوان التعذيب، كل من امتنع عن ذلك، أو أخفى شيئاً ثميناً. ولم يفلت من اضطهاده وعنفه النبلاء وأعضاء مجلس السناتو[٨٨].

أما رجال الإكليروس الكاثوليك، فقد عانوا الأمرين على يديه، وكان ڤيكتور ڤيتنسس خير من زودنا بأحوالهم. فبعد غزوه لقرطاج سنة ٤٣٩م، منع الكاثوليك من ممارسة شعائرهم الدينية بعد أن قام جيشه بنهب الكنائس، وتجريدها من نفائسها، وأدوات طقوسها الدينية الثمينة الذهبية منها والفضية. و لم تسلم آثار قرطاج و كاتدرائياتها من أعمال الهدم و التخريب و السرقات. كذلك ألقى جيزريك القبض على أسقفها كودڤولتديوس Quodvultdeus و كبار رجال الإكليروس. فقد تركزت مواعظ الأسقف على التنديد ببطش الوندال، وتحذير رعيته من ضغوط الذئب جيزريك لإكراههم على اعتناق المذهب الأريوسى. لذا قام الزعيم الوندالي بتجريد رجال الدين الكاثوليك و أسقفهم من أموالهم، و لم يترك لهم أى مورد،

---

87 *Gautier*, p. 190.

88 *Vita*, M.G.H.a.a., III, p. 8; Éd. Petschenig, p. 10; Éd. Migne, p. 190.

وكان من بين أعضاء مجلس السناتو المنفيين جورديانوس Gordianus جد القديس فلجنس Fabius Ciaudius Fulgentii أسقف روسبينا Ruspina في إفريقيا الذي ولد سنة ٤٦٨م في لبتيس Leptis في بيزاسين Byzacene وتوفي سنة ٥٣٣م. وقد نفي فلجنس أيضاً في عهد الملك الوندالي ترازيموند Thrasimond. وقد حارب طول حياته الهرطقات الدينية المسيحية وعلى رأسها الأريوسية والنسطورية والبلاجية وأتباع يوطيخا ، ولقب بأوغسطين عصره، وقد أفرد العديد من المؤلفات.أنظر: *Vita Fulgentiis*, p. 37. CF. *Bouillet*, pp. 713 – 714.

و أمر بوضعهم جميعا على ظهر سفن حالتها سيئة للغايه حتى تغــرق بهــم، إلا أن العنايــة الإلهية – حسب قول الأسقف ڤيكتور– أوصلتهم سالمين إلى نابولى[٨٩] Naples.ويواصل ڤيكتــور سرده قائلا إنه بعد طرد أسقف قرطاج ورجال إكليروسه من الشمال الإفريقي، تم غلق كل الكنــائس الكاثوليكيه. أما الكاتدرائية الرئيسية، فقد سُلمتْ إلى الأريوسيين، وتم مصادرة البــاقى و الاســتحواذ على ما بها من مقتنيات ثمينة، بل حتى الكنائس الكاثوليكية الصغيرة الموجودة فى نواحى المدينة لم تفلت من الغلق[٩٠]. ومن المعتقد آنذاك أن جيزريك فكر فى اقتلاع الكاثوليكية من ربوع مملكته لأنها ناصبته العداء، ولأن أتباعها كانوا عيوناً للرومان حسب اعتقاده.

موقف الامبراطورية البيزنطية من سقوط قرطاج:

ولقد سبب سقوط قرطاج انزعاجاً شديداً للامبراطورية الرومانيــة، خاصــة وأن جيزريــك أسرع بُعَيْدَ ذلك بإعداد إسطول كبير أبحر فى اتجاه شرق البحر المتوسط دون أن يخبر أحد بوجهته. وتمكن الوندال من الرسو فى صقلية دون مواجهة أية مقاومة. وكان مــن الطبيعــى أن تتعــرض الجزيرة – التي لم تجد من يحميها – لأعمال السلب والنهب والقتل والإحراق، كان ذلك فــى عــام ٤٤٠م. إلا أن الوندال عندما سمعوا بالاستعدادات التي أعدها الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ – ٤٥٠م) Théodosius II، عادوا ثانية إلى الشمال الإفريقي[٩١].

وفى العام التالى – أى سنة ٤٤١م – عزم الامبراطور ثيودوسيوس الثانى علــى اســتعادة قرطاج من الغزاة الوندال، فأنطلقت السفن فى طريقها لاستعادتها. إلا أنه فى غضون ذلك، تعرضت إلليريا Illyrie وتراقيا Thrace لإغارات الهون Huns بزعامة زعيمهم الــدموى أتــيللا Attila، فاضطر الامبراطور فى عجل إلى سحب أسطوله الضخم الذي كان قد سلحه أحسن تسليح لمواجهــة الهون الكاسحين للعالم آنذاك، مما جعله يبرم مع الوندال معاهدة سنة ٤٤٢م[٩٢].

---

89 *Vita*, M.G.H.a.a., III, p.3; éd. Petschenig, p. 8; Éd. Migne, p. 187; Vita Fulgentius, p.37.
أنظر أيضاً: إسحق عبيد، من آلارك إلى جستنيان: دراسة فى حوليات العصور المظلمة، القاهرة ١٩٧٧م، ص ٨٨.

90 *Vita*, M.G.H., p. 3; éd. Petschenig. p. 8; Éd. Migne, p. 187.

91 Prosper, *Chron*., 1344, dans M.G.H.a.a., IX, p. 476.
وقد أورد بروسبير أن الحملة البحرية على صقلية كانت بقيــادة كــل مــن أريوبنــدوسAriobindus و جرمــانوس Germanus وأزيلا Asila. بينماأضاف المؤرخ البيزنطي ثيوفانوس كل من إنوبندوس Innobindus و أرنثيــوس Arinthius أنظر: Theophanes, *Chronographia*, a. 5941, Éd. C. de Boor, I, p.101; *The Chronicle of Theopnanes*, By Harry Turtledove, Pensylvania, 1982. لم يرد فيها ذكر لتلك الأحداث، لأن المتــرجم بدأ المصدر بسنة ٦٠٩٥ (أول ســبتمبر ٦٠٢ – ٣١ أغــسطس ٦٠٣م). لــذا لجأنــا إلــى: *The Chronicle of Theophanes Confessor, Byzantine And Near Eastern History Ad 284 – 813*, Tr. Cyril Manco and Roger Scott, Oxford. 1997; Isidore, M.G.H.a.a., X1 p. 297 أنظــر أيــضاً: *Nicephore Calliste*, XIV, 57, dans *P.G.*, CXIV1, Col. 1269 B.

92 Prosper, *Chron*, 1346, dans *M.G.H.a.a.*,t.1X, p. 479; Isidore, Hist. Wand., 76, dans *M.G.H.a.a.*, X1, p. 297; Marcellinus Comes, *Chron*., dans M.G.H.a.a., X1, p. 80.
وقد أدرج الكونت مرسلينوس الحملة البحرية الوندالية على صقلية تحت أحداث سنة ٤٤١م

معاهدة سنة ٤٤٢م:

على أية حال، خفت وطأة اضطهادات جيزريك بعد إبرامه معاهدة سنة٤٤٢م[٩٣]، إذ كانت لصالح الوندال، خلافاً لهدنة سنة ٤٣٥م. وقد انفرد ڤيكتور ڤيتنس بذكر المناطق التي اصبحت خاضعة للسيادة الوندالية وهى بيزاسين[٩٤] Byzacene (السهل التونسى فى أيامنا هذه)، وزيوجتين[٩٥] (زغوان حالياً) Zeugitane بما فيها قرطاج ومزاته والمسماه فيما مضى إفريقية القنصلية وكانت عاصمتها قرطاج (وتقع شمال تونس حالياً)، كذا جزء من نوميديا (الجزائر) Numidie يشمل هيبو Hippo (عنابة حالياً). كذلك اقليم جيتوليا Gaetulia (والمقصود بها السهول العليا لجنوب نوميديا ومنطقة الشطوط الجزائرية التونسية)، وأباريتانا Abaritana (أى الأوراس). أى أخصب أراضي إفريقية البيزنطية وأكثرها ثراء وتشمل كل الجزء الشرقى. أما الامبراطورية الرومانية، فقد قَنِعَت بأشدِ الجهات فقراً واقلها استقراراً وهى: موريتانيا القيصرية M.Césarienne وموريتانيا السطيفية (سطيف) M.sitifienne وبقية نوميديا، وبلا شك الجزء الغربى مع سرتا (قسنطينة حالياً) Cirta وبلاد طرابلس. ولم يرد ذكر موريتانيا الطنجية التي كانت تابعة لاسبانيا فى نص المعاهد[٩٦].

هكذا أُكْرِه الامبراطور فالنتيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥م) Valentinian III – رغم أنفه وبسبب ضعفه فى مواجهة الوندال– على التنازل عن قرطاج، لكنه لم يفكر فى ضياعها إلى الأبد، فهذا معناه فقدان سيطرته على غربى البحر المتوسط. وتلك المسألة تعد مسألة حياة أو موت بالنسبة للأمبراطورية الغربية. فموضوع انسلاخها للأبد عن جسد الامبراطورية غير وارد على الإطلاق فى سياسته الخارجية، إذ عزم – فور تلك الصدمة القوية غير المتوقعة– على إعادة بناء جيشه ومؤسساته، واستعادة أراضي الامبراطورية المغتصبة من بين أنياب الغزاة الوندال.

نتائج معاهدة سنة ٤٤٢م:

ولقد صادر جيزريك أخصب الأراضي التي يملكها النبلاء الأفارقة وأثرياء رجال الدين الكاثوليك، واحتفظ لنفسه ولولديه هونوريك وجنزونى Genzoni ببيزاسين وأباريتانا Abaritana

---

93 Theophanes, Éd. De Boor, I, p. 101; *The Chronicle of Theophanes Confessor*, p. 159.

94 "بيزاسين" Byzacene عاصمتها هدرومنتوم Hadramentum وهى مدينة سوسة الحالية. وبيزاسين هى سهل تونس فى أيامنا هذه أنظر: *Gautier*, p. 217.

95 بعد سقوط إفريقية القنصلية فى قبضة الوندال أطلق عليها اسم زيوجتين (زغوان حالياً)، إذ أورد ڤيكتور دوفيتا "...Zaugitanam Uel Proconsularem.." أنظر: *Vita*, 13, dans M.G.H.a.a, III, p. 4 Éd. Petschenig, p. 7; Éd. Migne, p. 186. وكانت عاصمتها قرطاج ، إذ جاء فى المصدر السابق: "Zeugi, Quae Procunsularis Antea Vocabatur Carthago" وأفريقية القنصلية Africa Procosularis هى تونس الحالية.

96 *Vita*, I, 13, dans M.G.H.a.a., III, p. 4; Ed. Petschenig, p.7; Éd. Migne, p. 186; Polemius Silvius, *Laterculus*, 3, dans M.G.H.a.a., IX, p. 538.

وجيتوليا Gaetulia وجزء من نوميدنا؛ أى على وجه التقريب أرضى كل الولايتين الكبيـرتين أى نوميديا وبيزاسين، إضافة إلى جزء من زيوجتين (زعوان) Zeugitane التي كانـت تـسمى فيمـا مضى إفريقية القنصلية "Zeugiquae Proconsularis Antea Vocabatur Carthao" الواقعة فى وسطها، وكانت أصغر الولايات ولكنها أغناها. كما قام بمصادرة أملاك عامة الأفارقة الرومـان خاصة الأراضي الخصبة، ووزعها على المقاتلين الوندال كإقطاعات وراثيـة مقابـل أداء الخدمـة العسكرية فى صفوف الجيش الوندالي، على أن تعفى هذه الأراضي من كافة الضرائب. وعرفت تلك الأراضي "بالحصص الوندالية" Sortes Vandalorum. أما نوعية الأراضي الأولى التي استحوذ عليها جيزريك وولديه والتي تعد أخصب الأراضي واكثرها إنتاجاً فقد تكوّن منها حسب قول فيكتور "أملاك سيدنا جيزريك" Dominicus Noster Gaisericus.

وهكذا، حظيت معاهدة ٤٤٢م بقبول تام من قبل الوندال، لأنها جعلـتهم يـسيطرون علـى مناطق غنية وهامة وبالغة الحيوية. ويؤكد ما ذهبنا إليه قول فيكتور إن جيزريك بسط سيادته علـى الساحل الإفريقي بأكمله[٩٧]، إذ أورد: "Totius Africa Ambitum Obtinuit"؛ هذا بينما يـرى بروسبير Prosper ومصدران آخران نقلا عنه، أن الشمال الإفريقي تم اقتـسامه بـين جيزريـك وفالنتيان الثالث[٩٨]. وبذلك أصبحت الغالبية العظمى من مساحة إفريقية البيزنطية تحت سيادة الملك الوندالي حسب ما أوردته المصادر اللاتينية [٩٩]. وهكذا ولدت مملكة الوندال عشية إبـرام معاهـدة سنة ٤٤٢م، تلك المعاهدة التي منحتها شهادة ميلاد من وجهة نظر الوندال على وجـة الخـصوص، بعد أن سقط الجزء الاكبر من الشمال الإفريقي فى قبضتهم.

عقب هدنة ٤٤٢م، تحدث فيكتور فيتنسس عن تسامح شهدة الكاثوليك آنذاك حتى أنه فى ٢٥ أكتوبر سنة ٤٥٤م عُينَ ديوجراتياس Déogratias أسقفاً جديداً فى قرطاج [١٠٠]، وعاصر الأسقف

---

97 *Vita*, I, 13, dans M.G.H.a.a., III, p. 4; Éd Petchenig, p.7; Ed, Migne, p. 186 .

98 جاء فـى بروسـبير: "Cum Gisirico ab Augusto Valentiniano Pax Confirmata et Certis Spatiis Africa inter utrumque Diuisa Est" Prosper, Chron., 1347, dans M.G.H.a.a., 1X, p. 479: أنظر: Cassiodore, *Chronique*, 1240, Id., X1, p. 156; *Merobaudes*, II, 25, X1V, p. 12.

99 أكد ذلك ما أوردته الحولية الغاليـة ، إذ جـاء فيهـا: "Carthago A Vandalis Capta Cum Omno Simul Africa" . أنظر: (*Chron. Gall*..a. Ccccli, 129, dans M.G.H.a.a., t. 1x, p.660). وقد نقل عنها كل من هيداس والكونت مرسلينوس، إذ أورد هيـداس: "Omnem Africam Inuadit"(أنظـر: Hydace, *Chron.*,115, Id., X1, p.23). أما مرسلينوس فقد جاء فـى مـصدره: "Africae Ciuitates Cartaginem Metropolim... occupauit". Marcellinus Comes, *Chron.*, a. 439, 3; Id., X1, p. 80.

100 *Vita*, I, 24, M.G.H.a.a., III, p.7; ed Petschenig, p.11; Ed Migne, p. 191.
والجدير بالذكر أن كرسى أسقفية قرطاج كان شاغراً منذ عام ٤٣٩م وحين رسم ديوجراتياتس Deogratias أسقفا على قراطاج فى أكتوبر سنة ٤٥٤م تم ذلك فى كنسية القديس فوسـتوس Saint-Faustus إذ جـاء فـى هـذا الـصدد: "Carthagine Ordinatur Episcopus Diogratias in Basilica Fausti" أنظـر: Continuatio Codicis

الجديد تمكن جيزيريك من اجتياح روما، ذلك الحدث الهام الذي أشار إليه فيكتور[١٠١] إشارة عابرة لا تتناسب على الاطلاق مع ضخامتة[١٠٢]، بينما ضخم من مجهودات أسقفها وتضحياته من أجل تخفيف آلام الأسرى من مدنيين وأرباب حرف وأصحاب كفاءات نادرة. وشاءت تعاستهم أن قام الوندال والبربر باقتسامهم كعبيد فيما بينهم. وتم عزل النساء عن أزواجهن، والأبناء عن الوالدين ولم يتردد ديوجراتياس على الاطلاق عن بيع الأوانى الذهبية والفضية التي بكنيسته لتخصيص المبالغ المتحصلة من أجل إطلاق سراح الأسرى، وليغيد اللحمة إلى الأسر المتفسخة. وبما أن أعداد الأسرى كان كبيراً حتى صعب إيجاد مأوى لهم، أسرع الأسقف ديوجراتياس بإيوائهم فى كنيستين كبيرتين رئيسيتين فى قرطاج، ووزع عليهم الأغذية لإطعامهم، كما أهتم برعاية المرضى منهم. كذلك حظيوا برعايته طوال الليل، شفقة بهم، وتخفيفاً لآلامهم ويواصل فيكتور سرده قائلاً: إنه كان يقوم بزيارة الملاجئ التي افتتحت بعنايته ورعايته، وكان يتوقف أمام كل سرير، ليستفسر عن حالة كل ضيف من ضيوفه، دون أن يعبأ بالتعب الذي يلحق به لكبر سنه. ونتيجة أعماله الطيبة تلك،

Reichenauiensis. *Ad Prosp.*, 25 dans M.G.H.a.a.. 1X, p. 490.

وعن كنيسة القديس فوستوس أنظر *Vita.*. Éd. Migne, pp. 191–192 n. B

101 Vita. I. 24, M.G.H., p. 7; Éd. Petschenig, p. 11; Éd. Migne, p. 191 .

102 بمقتل فالنتنيان الثالث فى ١٦ مارس سنة ٤٥٥م، استنجدت أرملته أيودكسيا Eudoxia سراً بملك الوندال جيزريك طالبة منه القدوم إلى إيطاليا وغزو روما، بعد أن فقدت كل أمل فى مساعدة القسم الشرقى من الامبرطورية الرومانية، هذا بينما كان الزعيم الوندالى يتحرق شوقاً لاجتياحها تحقيقاً لأحلامه التي طالما سعى إليها. وبالفعل، تقدم جيزريك على رأس قواته تساعدها قوات من البربر إلى أن وصل إليها فى الثانى من يونيو سنة ٤٥٥. فما كان من البابا ليون الأول Léon I أن خرج على رأس وفد من رجال الدين الكاثوليك لإنتظار ملك الوندال على باب المدينة "التي حلت عليها لعنة الله" (أنظر: Hodgkin, *Italy and her Invaders*, II, p. 255). تماما كما فعل من قبل مع الهون. وأخبر البابا زعيم الوندال أن المدينة ستستسلم دون مقاومة، وتوسل إليه أن يحقن دماء سكانها، وألا يحرقها. وبعد هذه المقابلة، دخل جيزريك روما ممتطياً صهوة جواده، وتعرضت روما لمدة خمسة عشر يوماً لأعمال السلب والنهب و التخريب. وأوردت الحوالية الغالية أن الزعيم الوندالى التزم" بعدم إزهاق الأرواح ، ولم يقدم على إحراق روما" (جاء فى هذا الصدد: "Sine Fero et Igne Roma Proedata Est". (أنظر: *Chron. Gall. A DXI*, 623, dans M.G.H.a.a., X1, p. 663.) وعند انسحاب الوندال من روما، إقتادوا الأسرى بالآلاف، وكان من بينهم أرملة الامبراطور وابنتها، وزوج الابنة الكبرى أيودكسيا بإبنه هونوريك. أما الأم والأبنة الثانية، فأسكنهما فى القصر الملكي بقرطاج وعاملهما بالحسنى. عن تفاصيل الغزو الوندالى لروما أنظر: Victor de Tunnuna, *Chron.* a. 455, dans M.G.H.a.a., X1, p. 183–186; Consularia Italica, *Add. ad Prosp. Haun. 4*, dans M.G.H.a.a., 1X, p. 304; Jean d' Antioche, dans *Fragmenta Historicom Graecorum*, Éd. C. Muller, 1V, pp. 615 – 616; Prosper, *Chron.*, 1375, p. 484; *Chron. Gall.a. DX1*, 623. dans, M.G.H.a.a., 1X, p. 663; Hydace, *Chron.* 162, id; X1, pp. 27 – 28; Paul Diacre, *Hist. Rom.*, X1V, 16, Id., II, p. 206; Isidore, *Hist. Wand.*, 77; Id., p. 298; *Jordanes*, dans M.G.H.a.a., t. V, p. 118; Theophanes, *Chron.*, a. 5947; éd. C. de Boor, I, p. 109; *The Chronicle of Theophanes Confessor*, p.167; Georges Cedrenus, *Hist. Comp.*,dans *C.S.H.B.*, I, p. 606. Cf. Souttar, R., *A History of Mediaeval Peoples*, p. 338; Lot, F., *Les Invasions Germaniques*, p. 115; *Deanesly*, p. 77; *Gautier*, pp. 232 – 238; *Schmidt*, pp. 97 – 105.

حظى بحقد الأريوسيين الذين حاولوا قتله أكثر من مرة، وكثيراً مانصبوا له الكمائن إلا أن الله أنقذه من براثنهم وبكاه الأسرى الرومان حين توفى، وشعروا أنهم عادوا ثانية لينالوا العذاب على أيدى البرابرة الوندال(١٠٣).

وبوفاته سنة ٤٥٧م، بعد أن شغل كرسى أسقفية قرطاج لمدة ثلاث سنوات، أصبح كرسى الأسقفية شاغراً –حسب قول فيكتور– ربع قرن من الزمان، فلم يقم جيزريك بتعيين خلف لديوجراتياس، بل أغلقها هى أيضاً بعد بضعة أعوام، وقام بنفى رجال أكليروسها من الكاثوليك(١٠٤).

علاقة جيزوريك بأدوراكر:

هذا وقد أورد "فيكتور فيتنسس أنة فى سنة٤٧٦ م، أبرم جيزريك إتفاقية مع" أدواكر odoacre"الذي استولى أنذاك على إيطاليا ، ووضع نهاية للامبراطورية الرومانية فى الغرب(١٠٥). ويذكر فيكتور أنه بموجب تلك الاتفاقية تنازل جيزريك عن الجزء الأكبرمن صقلية" لأدواكر" واحتفظ لنفسه بالجزء الاستراتيجى الهام من الجزيرة، وهى المنطقة الأكثر قربا من ليبيا ، وذلك مقابل أن يدفع لزعيم الوندال جزية سنوية(١٠٦). والملاحظ أن فيكتور انزلق إلى خطأ. فأدواكر خلع أخر أباطرة الغرب ليس قبل ٢٤ أغسطس سنة ٤٧٦م، ولابعد وفاة جيزريك أى فى٢٤يناير٤٧٧م. وأن الوندال قاموا باحتلال صقلية بعد سنة ٤٦٨م، وأن اتفاقية سنة٤٧٤م أضفت الشرعية لسيادتهم عليها. إذن ليس من السهل عليهم التنازل عنها بسهولة، بل يبدو أن الزعيم الوندالي جيزريك أراد أن يجنب ورثتة مشكلة التنازع مع الزعيم الجديد فى ايطاليا و الذي يسميه فيكتور عن طريق الخطأ ملك ايطاليا Rex Italiae ،بل ربما رغب أن يُظهِرأدواكر فى صورة تابع له، حين قرر أن يدفع له زعيم الهيرول جزية سنوية.

اتفاقية سنة ٤٧٤ م بين جيزريك وزينون:

وأدركت الامبراطورية الرومانية الشرقية أنذاك عجزها عن مواجهة الوندال ، لذا رأى الامبراطور زينون(٤٧٤–٤٩١م) Zénon الذي تولى العرش فى ٩ فبراير سنة ٤٧٤م ضرورة التفاوض معهم. ويبدو أنه منذ أوائل عهده، أوفد إلى قرطاج البطريق Patrice سفيروس Severus، وكلفه –حسب قول فيكتور– بالتفاوض مع جيزريك(١٠٧). وانتهى الأمر بإبرام إتفاقية سلام دائمة عام

---

103 *Vita*. , I, 25, M.G.H, p. 7; Éd. Petschenig, p. 12; Éd. Migne, 191.

104 *Vita*., I, 51, M.G.H, p.13; Éd. Petschenig, p. 22; Éd. Migne, 202.

105 سقطت الامبراطورية الرمانية الغربية فى ٤ سبتمبر سنة ٤٧٦ م. أنظر: *Gautier*, p. 115; *Gourtois*, p. 192, N. 5.

106 *Vita*, M.G .H, p. 4; éd. Petchenig, p. 7; éd . Migne, p. 186.

107 إذ جاء فى فيكتور: "…. Aliquam Sibi reservantibus Partem"

Vita, *M.G.H.a.a.*, p.13; *Petchenig*, p. 22; éd. Migne, p. 202; *Malchos*, dans F.H.G., Müller, IV, pp. 114-115, 120 -121; Paul Diacre, *Hist. Rom.*, XV. 7, dans *M.G.H.a.a.*, II, p. 216.

٤٧٤م حُددتْ فيها العلاقات بين مملكة الوندال والامبراطورية الرومانية الشرقية. وينفـــرد ڤيكتـــور بذكر شرط واحد من شروط تلك الاتفاقية يقضى بإعادة فتح كنائس قرطاج، والسماح بعودة رجـــال الاكليروس المنفيين إليها[١٠٨]. أما بروكوبيوس فيذكر من بين الشروط أن يتعهد الطرفان بالكف عن القيام بأية أعمال هجومية حفاظا على السلام بينهما[١٠٩]. ومما لا شك فيه أن الملك الوندالي سيمتنع عن القيام بأعمال السلب والنهب للمقاطعات الشرقية، بينما لا ينطبق هذا الشرط على القسم الغربـــى من الامبراطورية. وبهذا اعترفت الاسبراطورية البيزنطية. بموجب اتفاقية سنة ٤٧٤م بمولد مملكـــة وندالية تضم إفريقية الرومانية بأكملها، وجزر البليار، وجزر بتيوسس (وهى مجموعة جـــزر تقـــع غرب جزر البليار)[١١٠] Pityuses وجزيرة كورسيكا، وجزيرة سردينيا، وجزيرة صقلية التي تنازل عن جزء منها – فيما بعد– لأدواكر بموجب اتفاقية سنة ٤٧٦ م مقابل تعهد أدواكر بأن يدفع لـــزعيم الوندال جيزريك جزية سنوية كما سبق القول.

هذا عن أهم محتويات الفصل الأول من مصنف "تاريخ الاضطهادات التـــي لحقـــت بولايـــة إفريقية" وقد غطى عهد جيزريك؛ أما الفصل الثانى والثالث فقد خصصا لعهـــد هونوريـــك؛ ويعـــد المصدر الوحيد الذي عاصره وأفاض فى سرد أحداث عصره ويتناول الفترة من وفاة جيزريك فـــى ٢٤ يناير سنة ٤٧٧م وينتهى فى فبراير سنة ٤٨٤م.

أحوال الكاثوليك فى بداية عهد هونوريك:

في مستهل الفصل الثاني يذكر ڤيكتور أنه فى أوائل عهد هونوريك نعم الكاثوليك بالتـــسامح المذهبى الذي تحقق بفضل تدخل الامبراطور البيزنطي زينون Zenon حين أبرم اتفاق سنة ٤٨٤م مع مؤسس المملكة الوندالية جيزريك، وأخذ بها هونوريك إذ سمح للكاثوليك بعقد الاجتماعات العامة التي كانت محظورة عليهم فى عهد والده جيزريك. وفى نفس الوقت، قام بمطاردة معتنقى البدعـــة المانوية[١١١] Manichaism، فقام بإحراق العديد منهم، ونفى أعداداً أكبر فيما وراء البحار.

بفضل تملقة الامبراطور رينون، رقى سفيروس لمرتبة بطريق، و"بطريق" Patrice من ألقاب الشرف الرفيعة. لم يكن لحامله وظيفة معينة، أنعم به أباطرة بيزنطة على زعماء البرابرة مثل أدواكر وثيودوريك. وفى القرن الخامس حـــوّل ثيودوسيوس الثاني وزينون قصراً استخدام هذا اللقب، لكن جستنيان(٥٢٧– ٥٦٥م) أرجعه إلى سابق عهده انظر: فايز نجيب اسكندر، أسرة برينيوس ودورها فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية، الاسكندرية، ١٩٨٧م، ص٣، حاشية ١.

108 *Vita*, *M.G.H.a.a.*, p. 13; éd. Petchenig, p. 22; éd. Migne, p. 202.

109 Procope, *B.V*, I, 9, 23, éd. J. Haurny, I, p. 355; Procopius of Caesarea, *History of the Wars*, Book III, *The Vandalic war*, p. 71.

110 تشمل جزر بتيوسس Pityuses مجموعة جزر جنوب غرب جزر البليار، أهمها جزيرة "إيفيسا" Ivica وجزيـــرة "فرمنتيرا" وقد اشتق إسم الجزر من كلمة "صنوبر": Pitys اليونانية، لكون الجزر مغطاه بأشـــجار الـــصنوبر. أنظـــر: *Bouillet* , p. 1501.

111 ظهرت "المانوية" Manichaism فى بلاد المشرق، فشكلت خطراً على المسيحية، وتنسب إلى "مـــانى" مؤســـسها الذي درس فى بابل الزرادشتية والمسيحية والغنوسية. قسم "مانى" العالم إلى مملكتين متنافسيين: مملكة النور ومملكـــة الظلام وقال إن الأرض تتبع مملكة الظلمة وان الشيطان هو الذي خلق الإنسان، ولكن ملائكة إله النور اســـتطاعت أن

لقد فرح الكاثوليك لما لحق بأتباع مانى Mani من اضطهاد بالغ على يد الملك الوندالي الجديد، على اعتبار أن المانويين أخطر أعدائهم فقد جامل هونوريك الكاثوليك الخاضعين للسيادة الوندالية حتى يحظى بمجاملة مماثلة للأريوسيين المقيمين فى أراضي الامبراطورية الرومانية الشرقية، فيرضى عنهم الامبراطور البيزنطي. وأعتقد بالفعل أنه حقق هدفه(١١٢).

وحدث بعد مضى ثلاثة أعوام من اعتلائه عرش الوندال – أى فى عام ٤٨١م– أن استقبل هونوريك وفداً من قبل الامبراطور زينون وزوجة شقيقه بلاسيديا Placidia أرملة أوليبربوس Olbyrius يرأسه الكسندر Alexandre يطلب منه السماح بانتخاب أسقف لقرطاج التي لم تنعم بذلك منذ ما يناهز الربع قرن. فما كان من هونوريك أن أصدر أوامره بذلك، بل وكلف الكسندر بالذهاب إلى الكنيسة الكاثوليكية فى قرطاج لتنظيم عملية اختبار أسقف فى حضرته، يرى فيه الكاثوليك الجدارة والاستحقاق لشغل تلك الوظيفة الدينية الهامة. كما أوفد مع مبعوث الامبراطور البيزنطي مستشاره الخاص ڤيتارى Vitarit حاملاً معه مرسوما ملكيا قرأه على العامة، تضمن منح الحرية الكاملة للكاثوليك فى اختيار أسقفهم وفق رغبتهم؛ إلا أنه فى مقابل ذلك، إشترط أن تمنح القسطنطينية للأساقفة الأريوسيين المقيمين فيها وفى مقاطعات الامبراطورية الرومانية الشرقية، الحرية الكاملة فى ممارسة شعائرهم الدينية فى كنائسهم، وأن يبشروا بالمذهب الأريوسى باللغة التي يرتضونها. ونص المرسوم الملكي الذي أصدره الملك الوندالي هونوريك على أنه فى حالة عدم تطبيق الامبراطورية الرومانية الشرقية هذا الشرط، سيقوم بنفى أسقف قرطاج المنتخب حديثاً ورجال إكليروسه، وكذا جميع الأساقفة المتواجدين في المقاطعات الإفريقية الخاضعة للوندال، وسيتم إبعاد كل هؤلاء إلى المناطق التي لازالت تحت سيادة البربر(١١٣).

اضطهاد هونوريك للكاثوليك وأسبابه:

ويذكر ڤيكتور أن هذا المرسوم قرأ فى جميع الكنائس وبحضور الكاثوليك وذلك فى ١٨ يونيو سنة ٤٨١م. ويواصل سرده قائلاً: "بدأنا فى التذمر قائلين بصوت خافت إنهم يتذرعون بالحجج لكى

تدخل إلى البشرية بعض عناصر النور هى: العقل والذكاء والتفكير. وأورد الشهر ستانى في مصدره:"الملل والنحل" أن مانى كان يقول بنبوة عيسى بن مريم ولايقول بنبوة موسى، وزعم أن العالم مصنوع من النور والظلمة –كما سبق القول– وأنهما أزليان ولم يزالا قوبين حساسين، داركين، سميعين، بصيرين. وفرض "مانى" على أتباعه العشر فى الأموال كلها، والصلوات الأربع فى اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق، والابتعاد عن الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسحر وعبادة الأوثان. للتفاصيل أنظر: الشهرستانى: الملل والنحل، نشر فتح الله بدران ، جـــ ا، ص ٢٢٤– ٢٣٨. أنظر أيضاً: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط، ص ٢٥٨–٢٦٠.

112 *Vita*, Éd. Migne, p. 202; Éd. Petschenig, p. 24; M.G.H., p. 13.

113 *Vita*, Éd. Migne, pp. 202 – 203; Éd. Petschenig, p. 25; M.G.H., p. 13.

يضطهدونا وتوجهنا بذلك إلى مستشار الملك الوندالي [أى ڤيتارى] الذي لم يعر رأينا اهتماماً[١١٤] وانتهى الأمر بتعيين "أوچين" Eugene أسقفاً، وهو رجل يتسم بالتقوى البالغة والاحترام والتبجيل والقداسة والخلق الحميد حتى خارج حدود إفريقيا. وكانت صفاته الحميدة تلك مثار حقد وغيرة وحسد الأساقفة الأريوسيين،وعلى وجه الخصوص "سيريلا"[١١٥] Cyrilla. وأخيراً، نجح الأريوسيون فى حث الملك على إصدار أوامره بمنع اتفاق الأسقف الكاثوليكي عرش أسقفيته. وأعقب ذلك، منع دخول الكنائس على الرجال والنساء وهم فى لباسهم البربرى وكان هذا يعنى حرمان جموع غفيرة من الكاثوليك الذين لهم علاقة بالأسرة الملكية ويرتدون الملابس الوندالية من ممارسة شعائرهم الدينية. وكان رد أوچين على ذلك، أن بيت الله مفتوح للجميع، ولا يستطيع أحد حرمان شخص من دخوله[١١٦].

ونتيجة هذا الرد من قِبَل أسقف قرطاج[١١٧]، قرر الملك الوندالي هونوريك فى الحال إستخدام أبشع ألوان التعذيب؛ فأقام الجلادين عند مداخل الكنائس، وكلفهم بمجرد رؤية رجال أو نساء بملابس وندالية، أن يمسكوا بهؤلاء التعساء، وذلك بإلقاء آلة على رأسهم تشتبك بشعرهم، ثم يشدونها بعنف فتقتلع فروة رأسهم. ونتج عن تلك الوحشية أن فقد العديد بصره؛ أما البعض الآخر، فقد مات ألماً بسبب تلك المعاملة اللاإنسانية. وكذلك كانوا يسحلون النساء فى الميادين العامة بعد سلخ فروة رؤوسهن وبصحبتهن مناد عام حتى يرتدع الجميع. ورغم تلك الشراسة والوحشية، لم يتخل أحد عن المذهب الكاثوليكي وينتقل إلى الأريوسى حسب قول ڤيكتور الذي يتسم بالمبالغة الواضحة.

وأرجع ڤيكتور سبب بداية هذا الأضطهاد إلى غيرة الأساقفة الأريوسيين وشراسة ملكهم هونوريك[١١٨]. إلا أن ذلك غير مقنع، فإذا كان الملك الوندالي قد حُرِضَ على اضطهاد الكاثوليك، لما سمح لهم على الاطلاق بممارسة شعائرهم الدينية لكن مما لا شك فيه، فإن الكاثوليك بمجرد أن منحوا تلك الحرية، نشطوا فى التبشير بمذهبهم، وبالتالى ربما انتشرت الكاثوليكية فى صفوف الوندال، فدب الخوف فى قلوب الأريوسيين.

---

114 *Vita*. Éd. Migne, p. 203; Éd. Petschenig, p. 26; M.G.H., pp. 14–15.
والجدير بالتسجيل أن المرسوم سالف الذكر كان غير كامل وغير مؤرخ ومع ذلك، فقد نص على انتخاب أسقف كاثوليكى فى قرطاج، كما حدد شروط ذلك. أنظر: *Passio*, II, 2, p. 59.

115 ولد "سيريلا" Cyrilla فى "كويكل Cuicul فى نوميديا. ومن المؤكد أن إسمه ليس من الأسماء الجرمانية، لكنه مأخوذ من الأسم اليونانى "كيريلس" Kyrillos و القطبى "كرلس" أنظر: Schmidt, *Histoire des Vandales*, p. 126, n. 1.

116 *Vita*, Éd. Migne, pp.203 – 204; Éd. Petschenig, pp. 26 – 27; M.G.H., pp. 14 – 15.

117 عن أسقف قرطاج أوچين أورد ڤيكتور أنه "رجل قديس محبوب ومقبول من الله" إذ جاء فى مصدره "Uiro sancto deoque accepto" أنظر: *Vita*, Éd. Migne, p. 203; Éd. Petschenig, p. 26; M.G.H., p. 14
والملاحظة أن نسخة ميني بدلاً من Uiro أوردت Viro.

118 Vita, Éd. Migne, p. 204; Éd. Petschenig, p. 27; M.G.H., p. 15.

على أية حال، فإن السبب الأساسى لتلك الاضطهادات التي جددت فى عهد هونوريك يرجع إلى عدم تنفيذ الامبراطور البيزنطي لمطلب الملك الوندالي والقاضى بالتسامح مع الأريوسيين القاطنين فى ربوع الامبراطورية البيزنطية؛ وبالتالى تخلص هونوريك من الكاثوليك المحيطين به لشكه فى إخلاصهم. كذلك منعهم من شغل الوظائف العامة، أو وظائف فى البلاط الوندالي، إذ أصبح ذلك قاصراً على الأريوسيين ونتج عن ذلك أن تخلى عددكبير من الكاثوليك وبشجاعة عن وظائفهم، بدلاً من التخلى عن مذهبهم واعتناق المذهب الأريوسى.

وهكذا عانى القساوسة والشعب الكاثوليكي فى الشمال الإفريقي من الاضطهاد في كافة ربوع المملكة الوندالية. أما هونوريك، فقد أبدى ظاهريا بأنه لا يضطهد غير المذنبين. وفى هذا الخصوص، لم تفلت الراهبات الكاثوليك من التعذيب، إذ لفق لهن تهم إقامة علاقات آثمة مع القساوسة والأساقفة، فتحملن كافة ألوان العذاب والآلام والشراسة التي لا سبب لها(١١٩).

كذلك أورد فيكتور أن هونوريك ألقى القبض على أربعة آلاف وتسعمائة وستة وسبعين من الأساقفة والقساوسة والشماسة ورجال إكليروس كاثوليك آخرين، وقام بدفن الجميع فى الصحراء. ولم يرحم من تلك العقوبة فاقدى البصر، أو من يعانى من آلام مبرحة، أو الطاعن فى السن(١٢٠). وكان فى عداد هؤلاء الأسقف فيلكس Félix أسقف أبيبيرAbbir الذي كان فى تلك الأسقفية منذ أربعة وأربعين عاماً، وكان مصاباً بالشلل، ولم يشعر بما يدور حوله، إضافة إلى كونه أبكماً. ولقد أدرك رفاقه أنه من المستحيل نقل هذا الطاعن فى السن على ظهر دابة، لذا توسلوا إلى الملك – بواسطة محيطيه– أن يبقى فى قرطاج لاقتراب أجله. فما كان منه أن رد غاضباً بالقول: "إذا لم يستطع إمتطاء حصان، فعليكم ربطه بحبال لتجره ثيران جامحة، وتصل به إلى منفاه". وبالفعل، كان مصيره أن قيد ليمتطي حصاناً يجره طوال الطريق وكأنه قطعة خشبية(١٢١).

نفى الكاثوليك إلى الصحراء:

وهكذا، تجمع كل القساوسة ورجال الاكليروس من مدن سيكا Sicca ولارا Lara حيث كان على البربر اصطحابهم واقتيادهم إلى الصحراء. وأوفد الملك الوندالي إثنين من الكونتات للقاء البربر وحثهم على تنفيذ أوامره والرضوخ لمطلبه. ويذكر فيكتور أن بعض الأمهات قمن بإعادة تعميد أطفالهن وفق المذهب الأريوسى، بينما البعض الأخر سُرِرْنَ برؤية استشهادهم.

---

119 Vita, Éd. Migne, pp. 208 - 209; Éd. Petschenig, pp. 32 – 33; M.G.H., pp. 19 – 20.

120 Victor de Tunnuna, Vita, Éd. Migne, p. 209; Éd. Petschenig, p. 33; M.G.H., p. 19.
وقد أكد ذلك فيكتور دوتونونا ، إلا أنه قال إن العدد قارب على الأربعة آلاف. أنظر: *Chronique*, a. 479, l. duns M.G.H., a.a., X1, p. 189.
وقد أورد فيكتور دورتونونا أيضاً أن هونوريك كان أكثر دموية من والده جيزريك نظر: *Victor de Tunnua*, p. 187.

121 *Vita*, Éd. Migne, p. 209; Éd. Petschenig, pp. 33 - 34; M.G.H., p. 19 .

وتم حرمان هؤلاء المنفيين من أية زيارة، وعوقب حراسهم بأشرس العقوبات حال ضبط واختراق المنع. ويذكر ڤيكتور أن هؤلاء الكاثوليك تكدسوا كالجراد فوق بعضهم البعض، وأمضوا أيامهم وسط أطلال القاذورات العفنة التي لا يحتملها بشر(١٢٢). ويؤخذ على ڤيكتور ڤيتنسس جنوحه إلى المبالغة والخيال حتى يضخم أعمال الوندال الوحشية، فهو يبالغ فى وصف المآسى التي لاقاها المضطهدون من الكاثوليك، ويحاول أن يحجم أكثر من اللازم المهام الضخمة التي تحملها رجال الإكليروس آنذاك، بلا كلل ولا ملل، وبطاقة وحيوية تبعث على الإعجاب، حتى وهم فى السجون. فهم لا يخشون ازدياد وسائل التعذيب التي سيلاقونها. كما حاول إظهار دورهم وأثرهم على الشعب الكاثوليكي ليتمسك بمذهبه فى مواجهة إكراهه بكافة السبل والوسائل على اعتناق المذهب الأريوسى مذهب الغزاة. وأورد أن عملية النفي سالفة الذكر تمت يوم أحد، إذ ألبسهم الوندال الملابس المتسخة؛ ومع ذلك، كان المنفيون يتلون التراتيل الدينية رغم تهديدات البربر لهم.

ڤيكتور بصحبة المنفيين الكاثوليك:

وصاحب ڤيكتور جموع المنفيين رحلتهم الشاقة والمضنية إلى منفاهم. ويؤكد صحبته لهم بقوله: "لم نتمكن من إحصاء كل الذين لاقوا حتفهم نتيجة مشقة الطريق، لكثرة أعدادهم".

كما عانى الضعفاء وطاعنى السن من شراسة البربر الذين كانوا يكرهونهم على الجرى برميهم بالحجارة، ونغزهم بأطراف رماحهم. كذلك صدرت أوامر إلى البربر بتقييد المتقاعسين من أرجلهم وجرهم كالحيوانات الميتة، فأتت أحجار الطريق على جسدهم، ومزقت ملابسهم فلقوا حتفهم. ولم يصل إلى المنفى فى الصحراء إلا الأصحاء؛ فتغذوا كالدواب فى أرض عامرة بكم هائل من العقارب والزواحف السامة. ويواصل ڤيكتور حديثه قائلاً: "إن هذه الزواحف السامة تبث سمومها حتى ولو كانت بعيدة عن ضحيتها. ولا يشفى أحد على الإطلاق حين يمسه عقرب إلا أنه بفضل الله، لم يدان أحد من هذا العذاب الأليم"(١٢٣).

محاولات إكراه الكاثوليك على اعتناق الأريوسية:

ويذكر ڤيكتور أن هونوريك بالغ فى معاملته الشرسة للكاثوليك لإكراههم على اعتناق الأريوسية، إذا أرسل إلى الأسقف أوچين Eugene مرسوماً ليقرأه على عامة الشعب الكاثوليكي فى حضرة رچينوس Réginus مبعوث الامبراطور البيزنطي زينون Zénon . وتزامن ذلك مع إرسال مرسوم ملكى مطابق وصل إلى كافة ربوع المملكة الوندالية جاء فيه:

"من هونوريك ملك الوندال والآلان إلى كل الأساقفة الكاثوليك. نعلم أنه فى مواضع عدة، حُرِمَ على قساوستكم إقامة الاجتماعات فى البلاد الوندالية للحيلولة دون جذب وإلحاق الاضطراب بإيمان المسيحيين. ولوحظ رغم ذلك

---

122 *Vita*, Ed. Migne, pp. 209 - 210; Ed.Petschenig, pp. 34 – 35; M.G.H; pp. 19 - 21.

123 *Vita*, Ed. Migne, pp. 211 - 212; Ed. Ed. Petschenig, pp. 37 – 38; M.G.H., pp. 21–22 .

إقدام الكثير من قساوستكم على إقامة القداديس مدعين ممارسة شعائر العقيدة المسيحية الحقة. وبما إننا لا نريد على الإطلاق إثارة الصدام في الأراضي التي أسندت إلينا من قِبَل الله، لذا ندعو أساقفتنا المبجلين للحضور جميعاً إلى قرطاج فى غرة شهر فبراير القادم، ليتناقشوا بلاخوف مع أساقفتنا، وليثبتوا- إستناداً إلى الكتاب المقدس- دفاعهم عن المذهب الكاثوليكي، حتى نتيقن إذا كنتم تمارسون العقيدة الحقة. ولقد أرسلنا هذا المرسوم فى اليوم الثالث عشر من شهر يونيو، العام السابع من حكم هونوريك"[١٢٤](أى ٢٠ مايو ٤٨٣م).

لقد قُرِأ نص المرسوم بحضور مبعوث زينون. ويرى ڤيكتور أنه كان من السهل التنبؤ بنتائج الجدل بين أتباع المذهبين الكاثوليكي والأريوسى، إذ سيتم إدانة المذهب الكاثوليكي واعتباره هرطقة دينية، وذلة من الذلات؛ وأن هذا المذهب لا يقبله الملك الوندالي، ولايرضى عنه على الإطلاق. وكان من الطبيعى أن يعترض رجال الإكليروس الكاثوليك. فأسقف قرطاج أوچين وجه التماساً إلى هونوريك، عارض فيه إدانة الكاثوليكية رغم كونها منتشرة ليس فقط فى الشمال الإفريقي، ولكن أيضاً فى العالم أجمع.

على أية حال، وفقاً لليوم المحدد فى المرسوم الملكي، أى فى الأول من فبراير سنة ٤٨٤م، تواجد فى العاصمة الوندالية قرطاج أربعمائة وستة وستون أسقفاً كاثوليكيا حسب قول ڤيكتور الذي ذكر أيضاً أن قرطاج إستقبلت عديداً من أساقفة جزر البحر المتوسط[١٢٥]. ومن المعتقد أن ڤيكتور بالغ كثيراً فى ذكر عدد الحضور، كما بالغ من قبل فى ذكر الآلام التي عانى منها المنفيون ورجال إكليروسهم. ففي واقع الأمر، كان فى إفريقية أربعمائة وسبعون أسقفية، وأربعمائة وستة من الأساقفة حين عقد لقاء مع الدوناتيين[١٢٦].

ويؤكد ڤيكتور أنه لم يسمح للكاثوليك باستعراض مذهبهم وإثبات صحته، إذ تم الاكتفاء بتكليف عشرة منهم بالرد نيابة عن الجميع على أسئلة منافسيهم من الأريوسيين. وعند التقاء الجميع فى الموعد المحدد من قبل الوندال، إعتلى سيريلا Cyrilla رئيس الأريوسيين عرشاً مرتفعاً والتف حواله أتباعه، بينما لزم الكاثوليك الوقوف. حينئذ إعترض الأساقفة العشرة المكلفين بالحديث نيابة عن زملائهم الكاثوليك على هذا المسلك الشائن والمتغطرس، فدار خلاف ضار ونقاش حام بين رجال الدين من كلا الطرفين[١٢٧].

---

124 *Vita*, Éd. Migne, p. 213; Éd. Petschenig, p. 39; M.G.H., pp. 22 – 23.

125 *Vita*, Éd. Migne, p. 217; Petschenig, p. 44; M.G.H., pp. 40 – 41.

126 Victor de Tunnuna, *Chronique*, p. 189.

127 للتفاصيل أنظر : *Vita*, Éd. Migne, pp. 218 - 220; Éd. Petschenig, pp. 44 – 46; M.G.H; pp. 24 – 26.

مرسوم هونوريك ضد الكاثوليكية:

وبهذا ينهى ڤيكتور الفصل الثانى من مصدره، ليبدأ الفصل الثالث بالحديث عن دفـــاع قُـــدم للملك الوندالي يؤكد صحة المذهب الكاثوليكي، قدمه إليه الأساقفة. فما كان من هونوريك أن أصـــدر مرسوماً ضد الكاثوليك بعنوان "من هونوريك، ملك الوندال والألان، إلى كـــل الـــشعوب الخاضـــعة لسطانه"، جاء فيه:

"إن الملك الوندالي يطبق عدالة السماء التي تكافئ وتعاقب المرء وفق أفعالـــه.

لذا، قرر قمع المعترضين الذين اعتقدوا أن بإمكانهم عدم تنفيذ أوامـــر الآبـــاء، ضاربين عرض الحائط بتعليماتنا. وقد أمهلناهم تسعة أشهر، ثم أعطيناهم مهلة ثابية لعدة أيام حتى يعودوا إلى صوابهم. وقام أساقفتنا من الأريوسيين المبجلين بدعوتهم لإثبات صحة مـــذهبهم، إلا أنهـــم رفـــضوا مناقـــشتهم والإذعـــان لهم،وأثاروا الشعب على العصيانْ والتمرد. وفى اليوم الثانى من الاجتماع، بثوا الفوضى حتى يحولوا دون مناقشتهم.

ونتيجة اعتراضاتهم، قررنا بقاء كنائسهم مغلقة، لأنهـــم عزفـــوا عـــن المناقشة. لذا ينبغي أن يطبق عليهم – إحقاقاً للعدل– القوانين التي تمادوا فـــى اختراقها فى فترات زمنية متباعدة. وبموجب تلك القوانين حُرِّم عليهم ممارسة شعائرهم الدينية وإقامة الاجتماعات، وتشييد الكنائس فى المـــدن والـــضواحى الصغيرة، ومصادرة كنائسهم. كما حُرِّم عليهم أيضاً الاجتماع فى أى مكـــان، ويتم طردهم من المدن وكل ضواحيها. ويمنعون أيضاً مـــن تعميـــد النـــاس، وتتصيب [رشم فى المسيحية] الأساقفة والقساوسة ورجال الاكليروس عامـــة. وسيعاقب من يخالف ذلك بدفع غرامة مقدراها عشرة جنيهات مـــن الـــذهب. كذلك غير مسموح للمدنيين أن يتبرعوا بالأوقاف والهبات للكنائس الكاثوليكية. وأخيراً، فإن معتنقى المذهب الكاثوليكي محرومون من الميراث".

هكذا، أكال هونوريك عقوبات لا حصر لها لمعتنقى الكاثوليكية هادفاً من ذلك إقتلاعها مـــن الشمال الإفريقي، والإبقاء على مذهبه المفضل الأريوسية. ولم يفته إصدار عقوبات علـــى الحكـــام المدنيين للمقاطعات الذين يهملون فى تنفيذ أوامره، إذ أورد أنه سيطبق عليهم نفس العقوبات المطبقة على الكاثوليك.كذلك أقر هذا المرسوم أن القساوسة الأريوسيين هم أصحاب المذهب الحق وخدام الله الحقيقيين؛ وعليه تؤول ملكية كافة الكنائس الكاثولوكيـــة المقامـــة فـــى ربـــوع امبرطوريتـــه إلـــى

الأريوسيين. وأرخ ڤيكتور هذا المرسوم المنسوخ فى قرطاج فى الرابع والعشرين من فبراير سنة ٤٨٤م[١٢٨].

ولم ينتظر هونوريك إنقضاء المهلة المحددة لتنفيذ عقوباته وتهديداته، بل بمجرد التوقيع على المرسوم سالف الذكر، أصدر أوامره–حسب قول ڤيكتور–بتجريد كل الأساقفة الكاثوليك المجتمعين فى قرطاج من متعلقاتهم وطردهم من المدينة. كما قام بمصادرة كنائسهم ومساكنهم وأملاكهم؛ ولم يبق لهم شيئاً، لا خادم ولا حيوان ولا ملابس. وحرم على الجميع أن يقدموا لهم نجدة أو مأوى. أما الذين– بدافع الشفقة– حاولوا إيوائهم، فقد أقدم على إحراقهم وهم فى منازلهم، وتم اصطحابهم بالإكراه خوفاً من فرارهم. وحدث أن خرج هونوريك من قرطاج متوجهاً إلى حمامات السباحة، فأسرع جميع الأساقفة للقائه، ليستفسروا منه عن أسباب تلك الاضطهادات التي لا حصر لها. فنظر إليهم بازدراء دون أن يصغى لشكواهم، بل أطلق خيوله لتعقبهم، فقتل البعض تحت أقدامهم خاصة الطاعنين فى السن والمرضى.

ويواصل الأسقف ڤيكتور ذكر معاناة الكاثوليك من كافة ألوان ووسائل الاضطهاد[١٢٩]. ومن الطبيعى أن يبالغ فى سرده لكونه كاثوليكى يؤرخ لأعدائه الأريوسيين –كما سبق القول– لذا ينبغي قبول رواياته بتحفظ بالغ، إذ يؤرخ لجلاديه. ومع ذلك، فإن اضطهادات هونوريك للكاثوليك فاقت اضطهادات والده وسلفه جيزريك. شهد بذلك المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس(٥٠٠–٥٦٢م) Procopius فى مصدره المعنون "الحروب الوندالية"[١٣٠] Bellum Vandalicum.

أهداف هونوريك من اضطهاد الكاثوليك:

لقد كان هدف هونوريك من اضطهاداته المفزعة سالفة الذكر، إكراه الكاثوليك على اعتناق الأريوسية، حتى يعم مملكة الوندال مذهب واحد يساعد بالتالى على مزج الغزاة بسكان الشمال الإفريقي الأصليين، فتنعدم الفرقة وينصهر سكان الشمال الإفريقي جميعهم فى بوتقة واحدة. أما الامبراطور البيزنطي زينون Zénon، فقد عاود بذل ما بوسعه لإيقاف تلك التجاوزات، فأرسل إلى العاصمة قرطاج مبعوثاً يدعى" أورانيوس" Uranius، كلفه بمهمة الدفاع عن الكاثوليك وكنائسهم. وحتى يثبت هونوريك أنه لا يخشى أحداً، أقام أشهر جلاديه دموية وشراسة فى الميادين والشوارع التي سيجتازها المبعوث الإمبراطوري وهو فى طريق ذهابه وإيابه إلى مقر الملك الوندالي[١٣١].

---

128 للتفاصيل أنظر: – *Vita*, Éd. Migne, pp. 235 - 238; Éd.Petschenig, pp. 72 – 77; M.G.H; pp. 40 – 42.

129 للتفاصيل أنظر: – *Vita*. Éd. Migne, pp. 239 - 240; Éd. Petschenig, pp. 78 - 81; M.G.H., pp. 43 – 45.

130 Procopius, *Bellum Vandalicum*, Ed.J. Haury, I, p. 346. Cf. Procopius, *History of The Wars*: Book III, *The Vandalic War*, pp. 73 – 75.

والملاحظ أنه خصص صفحة واحدة فقط عن عهد هونوريك.

131 *Vita*, Éd. Migne, p. 246; Éd. Petschenig, p. 88; M.G.H., p. 49.

ومن المؤكد أن القصد من ذلك، إظهار الانتقام من الكاثوليك، لكون الامبراطور البيزنطي لـم يـنعم على معتنقى الأريوسية فى الامبراطورية البيزنطية بحرية ممارسة شعائرهم الدينية كما هـو متفـق عليه.

مما تقدم، يمكن القول إن زينون كان من بين أهم أسباب اضطهاد هونوريك للكاثوليك، بعـد أن شهدوا فترة من السماحة أوائل عهده؛ لكنها لم تستمر طويلاً.

مجاعة صيف ٤٨٤م خفت موجة الاضطهادات:

على أية حال، لم تخف الاضطهادات المفزعة التي عانى منها الكاثوليك[١٣٢] إلابعد إنتـشار جفاف ضاراستمر طوال فصل الصيف سنة ٤٨٤م، هدد إفريقيا بكاملها، وأحدث مجاعـة شرسـة إستمرت حتى اقتراب فصل الشتاء. وكانت رواية فيكتور أوفى الروايات إذ أورد أن المطر انقطـع تماما، فتحولت الأرض الخضراء إلى أرض صحراوية صفراء. وأصبحت أشجار الكروم يابسة فى نفس موضعها؛ آما أشجار الزيتون، فقد تحمصت بفعل الحرارة الشديدة. ومياه الجداول والينـا بيـع نضبت، ونفقت جموع غفيرة من الحيوانات، والرياح شديدة الحرارة أحرقت كل ما صادفها. وتفشى الطاعون الذي أتى على ضحايا لاحصرلهم[١٣٣].

وفاة هونوريك:

وفى نهاية نفس العام – أى عام ٤٨٤م[١٣٤]– فى الثانى والعشرين مـن ديـسمبر تـوفى هونوريك. ويؤكد فيكتور أنه توفي بالطاعون، ذاكراً أن وفاتة كانت جديرة بأعماله، وأنه حين دفن، لم يبق إلا قطع من جسده التي أتت عليها الديدان[١٣٥]؛ هذا بينما ذكر(٥٣٩ – ٥٩٣م) "جريجوار دو

---

[132] بسبب معاناه الكاثوليك من اضطهاد هونوريك، قالوا إنه كان شرساً دمويا كهيرودوس وجالريوس أنظـر: Courtois, *Les Vandales et l' Afrique*, p. 263.

[133] *Vita*, Éd. Migne, p. 253 - 255; Éd. Petschenig, pp. 99 - 102; M.G.H., pp. 54 - 55.

[134] توفى هونوريك فى شهر ديسمبر سنة ٤٨٤م"a 484 Mensi Decembri" دون تحديد يوم الوفاه. أنظر: *Vitam*. Éd. Migne. p. 285; Éd. Petschenig. p. 107; M.G.H; p. 59 هذا بينما أورد بروكوبيـوس أن هونوريـك توفى بعد أن استمر على عرش مملكة الوندال لمدة ثمانية أعـوام أنظـر: Procopius, *Bellum Vandalicum*, p. 346; *The Vandalic War*, p. 75. أما فيكتور دوتونونا فقد أورد أنه توفى بعد خروج أمعاؤه من جسده، فتـشابهت وفاته بوفاة أريوس Arius الذي كان يناصر مذهبه، وذلك بعد أن حكم مملكة الوندال سبعة أعوم وخمسة أشهر.أى أنه توفى فى ٢٢ ديسمبر سنة ٤٨٤م. أنظر: Victor de Tunnua, *Chronique*, p. 190. وقد أخذ بهذا الرأى – الذي يعد صحيحاً – شارل كورتوا أنظر: Courtois, *Les Vandales et l' Afrique*, pp. 242, 259. فى حـين يـري شمدت أنه توفى فى ٢٣ ديسمبر ٤٨٤م أنظـر: Schmidt, L., *Histoire des Vandales*, Paris, p. 133. بينمـا يرى فـ. مرتروى أن هونوريك ربما توفى فى ١١ديسمبر سنة ٤٨٤م بعد أن حكم سبعة أعـوام وعـشرة أشـهر تقريباً أنظر Martroye, F., *L' Occident à l' époque byzantine*, Paris, 1904, p. 209.

[135] *Vitam*, Éd. Migne, p. 258 -259; Éd. Petschenig, p. 107; M.G.H., p. 59.

تور"Grégoire de Tours في مصدره "تاريخ الفرنجة "Historia Francorum" أن الشيطان إقتلعه من الأرض، وأنه توفي بعد أن قضم ومزق نفسه"(١٣٦).

الخاتمة:

ختام القول، إذا كانت سمعة الوندال سيئة إزاء كاثوليكيى الشمال الإفريقي في ظل سيادتهم عليه، فيجب أن نضع في الاعتبار أن تاريخهم -كما سبق أن أوضحنا- لم نعرفه إلا عن طريق ضحاياهم من رجال الكنيسة الكاثوليكية- من أمثال الأسقف المؤرخ ڤيكتور ڤيتنسس وبوسيديوس أسقف جالمة و فراندوس أسقف قرطاج- الذين ذاقوا الأمرين على أيديهم، وبالتالى لا ننتظر منهم الانصاف، بل التشهير والمبالغة. ومن المؤسف حقاً أن التاريخ الوندالي لم يكتبه مؤرخ من بنى جنسهم حتى نتمكن من عقد دراسة تحليلة نقدية مقارنة لوجهتى النظر، تساعد على استجلاء الحقائق، وإعطاء كل ذى حق حقه.

لذلك، لا يمكننا القول بأن الوندال يتسمون بميول هدامة للحضارة، إذا اتضح من البحث أنهم حافظوا – إلى حد ما- على الحضارة الرومانية، بل أخذوا بالتقاليد والعادات والحياة الرومانية. وبعد استقرارهم فى الشمال الإفريقي، إنغمسوا فى حياة الترف والبذخ، بل وعملوا على تمازج و صهر العناصر الوندالية والآلانية والرومانية الكاثوليكية والبربرية. علما بأنهم لم يبالغوا فى ممارسة سياستهم الوحشية ضد الوطنيين الأفارقة. والجدير بالتسجيل – إستنادا إلى ألواح البرتيني Tablettes Albertini- أنهم لم يصادروا أراضي الفلاحين الذين كانوا مصدر الحياة الاقتصادية آنذاك، وإنما انتزعوا أراضي كبار رجال الاقطاع من الرومان المستغلين، لذلك تحامل عليهم كل أعدائهم – سواء رجال الدين الكاثوليك أو كبار الاقطاعيين- واتهموهم بالقسوة والوحشية وسفك دماء الأبرياء. ومع ذلك، ينبغي أن نسجل دور الوندال الحضاري فى الشمال الإفريقي رغم أنه لا يرقى إلى الدور الحضاري للرومان.

---

136 Gregorii Taronensis; *Historia Fracorum*, Lib. II, Cap. III, Éd. Arndt, M.G.H., p. 66.

خريطة رقم ١

مضيق جبل طارق

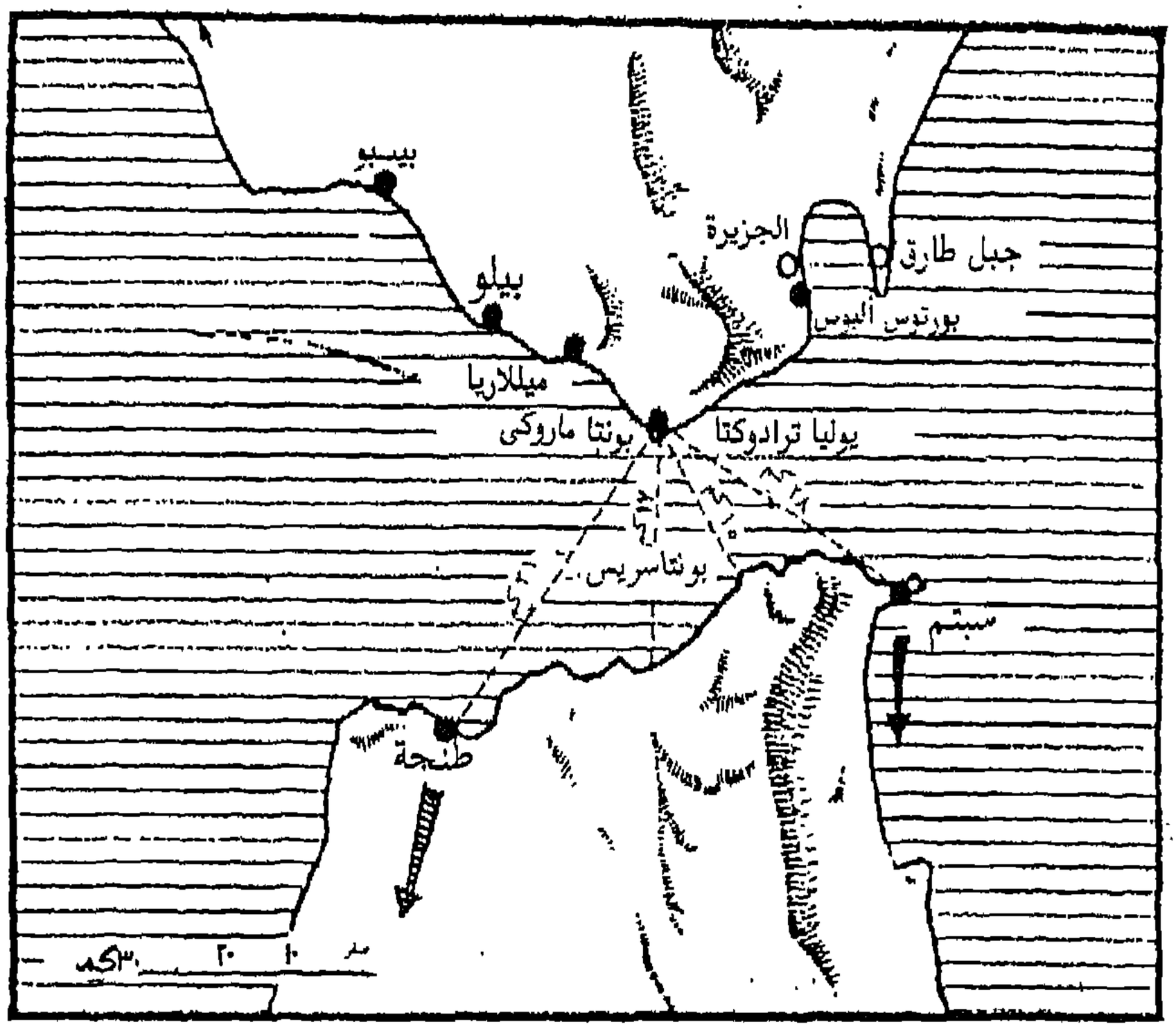

..... ◄ خط السير البرى

——— ◄ خط السير البحرى

خريطة رقم ٢

خط سير الوندال في إفريقيا

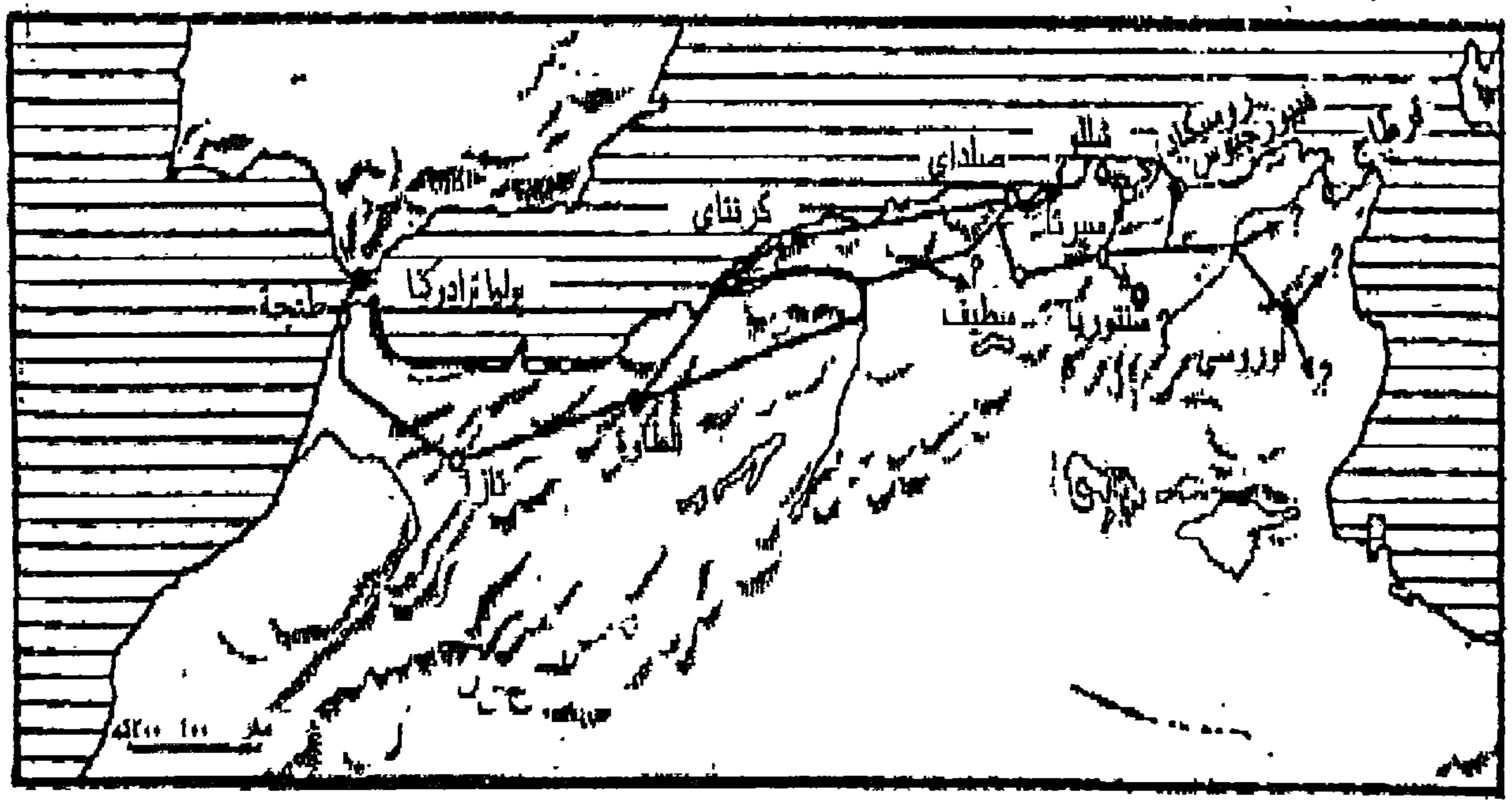

خريطة رقم ٣

حدود مملكة الوندال طبقاً لصلح افبراير ٤٣٥م

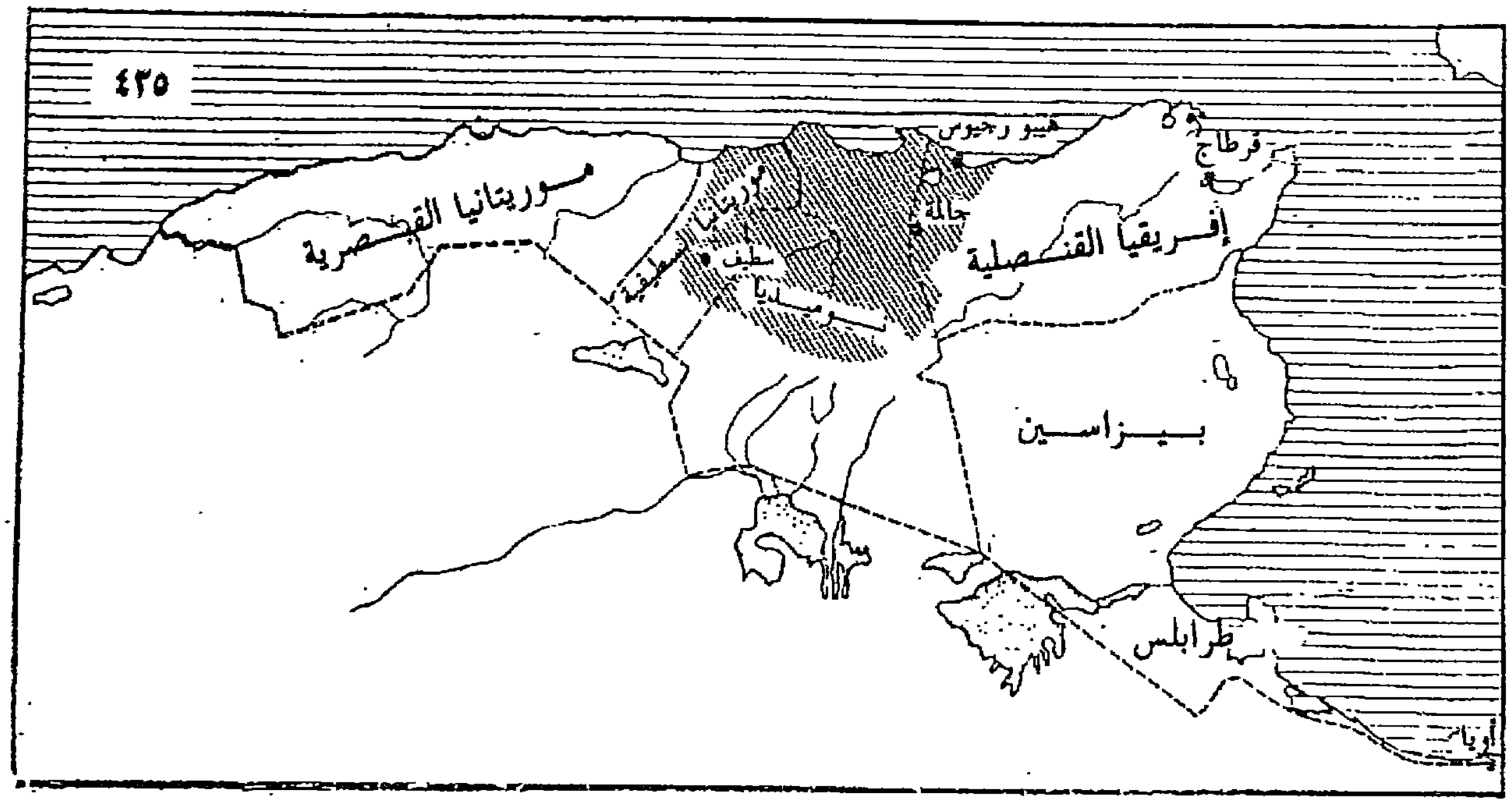

خريطة رقم ٤

حدود مملكة الوندال طبقاً لمعاهدة ٤٤٢م